عفاریت ترانزیت

الكتاب: عفاريت ترانزيت/ صلاح معاطي
المؤلف: معاطي، صلاح
النوع: رواية
تصميم الغلاف: جيهان متولي
إخــراج داخلي: بثينة عزام
الطبعة: الأولى/ القاهرة ٢٠١١
عدد الصفحات: ١٢٠ صفحة
المقاس: ١٤×٢٠
تدمك:
١- القصص العربية - مصر

صرح للنشر والتوزيع

المدير العام: عبود مصطفى عبود
كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسين (أ) برج (٢) الدور العاشر.
ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(+٢)
البريد الإليكتروني: darsarh@gmail.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-sarh.com
رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٦٠٩٤
الترقيم الدولي: 978-977-6382-32-9
ديوي ٨١٣

عفاريت ترانزيت

روايـة

تـــأليـــف

صـلاح معاطـي



(١)

بـدأت الطـائرة تتحـرك بنـا فـوق أرض المطـار، واسـتدارت يمينًـا لتتخذ لنفسها مسارًا انطلقت فيه مسرعة، ثم بدأت ترتفـع عـن الأرض شيئًا فشيئًا حتى صارت في السماء.. وأحسست بمكوّنات رأسي تـسقط بين عظام جمجمتي وأنّ عقلي يسبح في «بالوظة»، وارتخى جفناي وتمدّدا فوق عيناي، حتى بشرتي خشيت أن تسقط مـن عـلى وجهـي، وشـعرت أني أتوه في عالم هُلاميّ، فأغمـضتُ عينـيّ، وأسـندت رأسي عـلى زجـاج الكوة الزجاجيـة التـي بجـانبي، وتركـتُ جـسدي للطـائرة تفعـل بـه مـا تشاء.

كانت المرّة الأولى التي أستقلّ فيها طـائرة، بـل الأولى التـي أخـرج فيها من مصر.. وخفق قلبي من ذلك المجهـول الـذي ينتظـرني ولا أرى منه سوى بصيص ضئيل من ضـوءٍ خافـت، مبعثـه وُعُـوْدُ أخـي «كـمال»

المقيم في "دُبَيّ" منذ قرابة عشرة أعوام، ولا أعرف إلى أي مدى يمكن أن تتحقّق.

بعد قليل تسلّلتْ آشعة الشمس، وشقّت لنفسها طريقًا بين السّحابِ والضّبابِ الكثيف الذي يحيط بجسم الطائرة، فبدا حولنا كنتفِ القُطن المتكوّم، كأنّه تنجيد عروس، ولاحت لنا مياه البحر الأحمر أسفل الطائرة على هيئة بُقَعٍ سماويّة ذكّرتني ببقعِ المياه ورغاوى الصابون التي تتخلّف عن أمّي يوم الغسيل..

رحماك يا أمي.. كُتِبَ عليكِ أن تتلظّي بلوعة الفراق مرتين وأنت في هذه السنّ؛ فقد سبق وأُصبتِ بتلك اللوعة عندما سافر كمال.. وها أنت تقاسينها مرّة أخرى.. مازالت دموعك ماثلةً أمام عيني وأنا أودّعك، وصوتُك الحنون يرنّ في أذني وأنت تسدين إليَّ النصح:

- **كُلْ جيّدًا يا بُنيّ.. تدثّر بغطاءٍ ثقيلٍ وأنت نائم.. تقرّب من أخيك يا عصام واجعله عونًا لك في الشدّة..**

تذكّرت وأنا قابع في كرسيّ بالطائرة غادةً زوجتي ومعاناتنا منذ أيام الخطوبة، تعرّفت عليها في السَّنة الثانية بالجامعة، وسُرعان ما نما الحب بيننا.. راحت أحلامُنا تسبقنا إلى يوم التخرّج حتى يجمعنا بيت

واحد.. كانت الحياة تبدو لنا ورديّة، فلم نر ما تُخفيه بداخلها من أشواك.. ليصطدِم الحلمُ الورديّ بالواقع الأليم.. وبدأت رحلة البحث عن عمل.. أرسلت خطاباتٍ إلى ما يقرُب من مائة وظيفة، كانت ردودها جميعًا.. "سوف نرسل لك فيما بعد".. كاد اليأس والإحباط أن يتملّكاني لولا مؤازرة غادة ووقوفها بجانبي.. فلم تنتظر حتى يدقّ ساعي البريد بيتها برسالة من أي من الوظائف التي أرسلنا إليها، بل راحت تعمل بدورها في أماكن كثيرة من مكاتب ترجمة إلى مدارس خاصّة فدور حضانة.. دَفَعَتْني أنا أيضًا للعمل في مجالاتٍ لم يخطر ببالي أن أعمل فيها.. من سوبر ماركت، فمصانع ملابس، إلى دور نشر..

مرّ أمام عيني شريطٌ طويلٌ يحمل وجوهًا لم تستطع الذاكرة أن تمحوها.. «وجيه القرش» صاحب محل الملابس بالشواربي.. رجل حياته معلّقة بأدوات التشاؤم والتفاؤل.. فإذا داست قدمي دون قصد على نملة تسعى أمام المحل فمعنى ذلك انقطاع الرزق عن المحل لمدة أسبوع، سيخصم مني بالطبع.. وفي نهاية الأسبوع زاره موظّف الضرائب فكان جزائي انقطاع عيشي من المحل..

«عـاطف أبـو زيـد» موظـف الخزينـة بالـسوبر ماركـت، وعينـاه الماكرتان وهما تترصّداني في الذّهاب والإياب، ونظرة الحقد تطلّ من عينيه، يستقبلني بها كل صباح بلا سبب.. وآخر الأمر وَشَى بي عند صاحب السوبر ماركت فرَفَدَنِي.. «الست إحسان» ذات السبع صنائع، خبيرة في فكّ الأزمات، ودلّالة عند اللزوم، عندها من الإبرة للصاروخ.. ومستشارة في توفيق الرؤوس في الحلال.. ومهندسة في عمل الجمعيّات.. لا يلجأ إليها لاجئ أو معسر إلا وتخلق له جمعيّة تحلّ عسرته إلى حين.. فإذا عرفت باب «إحسان» لن تعدم طريقك إليها، وستصبح بمرور الوقت "مدمن جمعيّات"..

«أم تاج» صاحبة البيت الذي نقطن فيه في حارة حبظلم الملعونة، كما كنا نسميها بصوتها الحاد، ولهجتها السوقيّة المنفرة، وسبابها الدائم، وشخيرها الذي لا ينقطع ليلًا أو نهارًا.. وبيتها الضيق الذي لم نعد نستطع العيش فيه، والشارع الطويل الذي نقطعه سيرًا على الأقدام حتى نصل إلى البيت..

ابنتي هدى وهي تتعلّق بي باكية، وتلحّ عليَّ من بين دموعها أن أبقى ولا أسافر، كدت أرضخ لدموع ابنتي لكن التغيير أصبح أمرًا

حتميًّا، وجاءت فرصة السفر في الوقت المناسب لتفتح أمامنا آمالًا عريضة..

وليد.. ابننا الذي لم يكمل شهرًا من عمره.. وصياحه الذي ظل يملأ أذني حتى بعد أن غادرتُ البيت.. وكأنه يشعر أن تغييرًا ما سوف يطرأ على البيت.. وبعد أن كنّا قد عقدنا العزم على ألا نفترق مهما حدث، طامَنَتْ زوجتي رأسها وهي تقول في استسلام:

- فلتسافر يا عصام.. لعل الله يرضى عنّا ويخرجنا من هذا المكان البغيض..
- وأنتم..؟
- سننتظرك حتى تعود، أو ترسل لنا كي نأتي إليك..

انتبهت على صوت المضيفة تأمرنا بربط الأحزمة وعدم التدخين، إذ إننا نحلّق في سماء "دُبَيّ".. رحت أتلصّص من الكوة الزجاجية التي بجانبي محاولًا التعرّف على المدينة من السماء، لكنني لم أستطع لارتفاع درجة الرطوبة وتكثيف بخار الماء في الجوّ..

بدأت الطائرة تهبط وهي تميل بجناحها الأيسر، فانكمشتُ في مقعدي وكتم الجميع أنفاسهم، بينما الطيّار يحوم بالطائرة وقد اشرأبّت

الأعناق تحسُّبًا لاصطدامٍ متوقَّعٍ أو لانفجارٍ مُحتَمَل.. أخيرًا استقرّت الطائرة على أرض مطار "دُبَيّ" بسلام، وصفّق الجميعُ للطّيّار المصري الماهر، فالتفتُ إلى جاري في الطائرة يحدّثني بإعجابٍ لم يستطع كتمانه:

هذا هو الطيّار المصريّ.. تصوّر يا أخي في العام الماضي أخفق طيار ألماني في الهبوط في مطار "هامبورج" وكادت تحدث كارثة لولا ستر الله.

كان أخي «كمال» ينتظرني في المطار، تصحبه زوجته «سهام» وابنهما «كريم»، فاندفع نحوي يعانقني بحرارة، ثم انطلق بنا بسيّارته، بينما أخذتْ «سهام» ترحبُ بي وتهنّئني على سلامة الوصول.. أثناء قيادته السيارة أخبرني أخي أنهم أصدروا منذ أيام قلائل عدةَ قوانين لتقليص العمالة الأجنبيّة، فصاحت «سهام» مؤنّبة إياه:

- أليس من الأجدى الانتظار للغد وتخبره بأمر هذه القوانين الجديدة بدلًا من أن تصدمه من أول يوم له هُنا؟!..

ضحكتُ وأنا أُعَقِّب:

- اطمئني يا سهام، فمنذ صعدت الطائرة قادمًا إليكم وقد وطّنتُ نفسي على أنني جئت للفسحة..

تناولنا الغداء سريعًا في أحد مطاعم "دُبَيّ"، ثم أَخَذَنا «كمال» بسيّارته وقام بجولة سريعة بين الإمارات المتاخمة، وسرعان ما بدت لي الحياة يسيرة وهادئة.. كأن البلد تَفْتَحْ ذراعيها وتقول: **"عش كما يحلو لك، بشرط ألا تتعدى على حقوق الآخرين"**.

الإمارات بلد عجيب. كلما سرنا في شوارعها تطالعنا وجوهًا من جميع الجنسيّات.. هنود، باكستانيين، أفغان، بلغار، أتراك وأوربيين.. حتى خيل إلي أن العالم كله يصب في الإمارات، ومنذ الوهلة الأولى عشقت البلد وتمنّيت أن أعيش فيه.. لكنني تذكّرت القوانين الجديدة التي حدّثني بشأنها «كمال»، فعاودني القلق والخوف من المجهول والإخفاق، ومع ذلك غلبني النوم، وكان أزيز الطائرة مازال يتردد في أذني ليتحوّل إلى تنميلٍ داخل رأسي فيحتوي جسدي كلّه خدر لذيذ نقلني في ثوانٍ إلى الغد..

(٢)

أول يوم تشرق فيه الشمس عليَّ وأنا في الإمارات.. لم يُضيِّع أخي «كمال» وقتًا، أول ما أخذني إلى الشارقة التي تبعد عن "دُبَيّ" بنحو عشرة كيلو مترات قَطعَتْها السيارة في دقائق قليلة.

وهناك اكتشفت أن لأخي «كمال» علاقات واسعةً وحميمةً في كل الإمارات تقريبًا، وذلك لعمله المهمّ في جريدة الخليج.. وقد أكّد لي ونحن في الطريق أنه لن يعدم وسيلة لإيجاد عملٍ لي، حتى لو تطلب الأمر تعييني في الجريدة التي يعمل فيها، ولو أنه لا يحبذ ذلك حتى لا يُقال إنه يعين إخوته بالجريدة..

الشارقة فتاةٌ خجولةٌ حَيِيَّةٌ تتسم بالوقار والجمال معًا.. فبينما "دُبَيّ" تضج بالحرية والحياة لموقعها التجاري المهم، ترتدي الشارقة ثوب العِلْم والثقافةِ. كانت محطتنا الأولى في الشارقة دائرة الثقافة والعلوم.. رحَّب مديرها الإماراتي بنا، وأقسم أن يضيِّفنا، وأهدانا بعض الكتب حتى

جاءت سيرة العمل فهزّ رأسه في أسى وهو يذكر القوانين الجديدة التي تُقلِّصُ العمالة الأجنبيّة، وتتّجه إلى تعيين أبناء البلد..

قضينا اليوم طوله ما بين استوديوهات إعلان، وشركات دعاية، ومؤسَّساتٍ صحفيّة، ومحطات إذاعة وتليفزيون محلية وأجنبية، وانتهى اليوم الأول في بيت الأستاذ «ثابت أبو السعود»، وهو مصريٌّ يعمل في أحد البنوك بإمارة "أم القيوين".. شابٌّ مرحٌ لا تفارق الابتسامة وجهه.. اهتم بموضوعي ووعد كما وعد غيره بأنه سيكلم بعض معارفه في "أم القيوين".. وقبل أن ننصرف من عنده نصحني ألا أقيم أملًا كبيرًا في العثور على عمل، وذلك بسبب القوانين الجديدة.. وكأن مجيئي المباغت ذكّر الجميع بهذا الشعور الوطني تجاه أبناء البلد، وأصبحت أنا نموذجًا للعمالة الأجنبية التي جاءت لتزاحم المواطنين من أبناء البلد.. بدأت سحابة من اليأس تجتاحني، بدَّدها أخي «كمال» ونحن عائدين بسيارته:

- أتيأس من أول يوم.. ماذا ستفعل إذن لو بقيت ثلاثة أشهر أو ستة؟
- ودق قلبي:
- ثلاثة أشهر بدون عمل.. مستحيل..

- أوماً قائلًا:
- نعم.. هذه هي الفترة التي ستكون في ضيافتي حسب تأشيرة الزيارة، وهبْ أنّك أتيت للفسحة.. هذه فرصة ذهبيّة لترى الدنيا وتتعرف على أناس جدد، وفرصة ثانية لكي تنظر إلى مصر وأنت خارج الكادر.. سوف تتكشّف لك أمور لم تكن لتتهيّأ لك لو ظللت هناك طيلة عمرك، ففي السفر سبع فوائد كما يقولون..سكت «كمال» قليلًا كأنّه يبحث عن طريقة ليفتح بها موضوعًا مغلقًا منذ سنين:
- وفرصة ثالثة.. لتتعرّف أكثر على «سهام»..
- قلت وأنا أبتسم:
- كان مفاجأة لي ما أبدته نحوي «سهام» من تِرحابٍ واهتمام، يبدو أننا لم نكن نعرفها على حقيقتها.. سوف أحاول جاهدًا طيلة فترة إقامتي هنا أن أكون سببًا في إعادة المياه إلى مجاريها..

ضحك «كمال» وهو يستدير بسيّارته مُتَّخِذًا الطريق إلى "دُبَيّ" من أسفل كوبري "الشندغة":

- أنسيت يا عصام أن المياه لم تجر يومًا بينكم.. فمنذ زواجي من «سهام» وقد خيّم العداء بين العائلتين بلا سبب.. لدرجة أن حفل زواجي لم يحضره أحدٌ منكم..

كدت أذكّره بتاريخ هذا العداء الذي بَدَأَتْه «سهام» من قبل حفل الزواج بتطاولها على أمّي وإخوتي، وآخر الأمر أنها زارت البيت بعد زواجها في عدم وجود أحد، ومضت تصيحُ في وجه الأم العجوز التي راحت تنظر لها في دهشة دون أن تنبس، وأخيرًا قالت لها بوقاحة: لماذا لا تردّين هل أصابك الصمم الآن؟!.. لكن يبدو أن صمم أذنيك لا يبرأ إلا على سماع الأخبار السيّئة.. وأول هذه الأخبار هو طلاقي من ابنك..

كدت أذكّر «كمال» بهذا، لولا تذكرت أنني جئت الإمارات من أجل مُهمّة محدّدة وهي إيجاد عمل لي، لا من أجل سكب البنزين على النار لتزداد اشتعالًا.. بينما أسرع «كمال» مُعقِّبًا:

- لكنني نجحت بعد عناءٍ في السيطرة على الأمور المتفاقمة، وأرى أن تدخّلك الآن قد ينكأ جروحًا مُلتئمة..

انتهى حديثنا على باب البناية التي يقطن فيها «كمال» وهو يغمزُ لي في شبه إلحاح مُستَترٍ ألّا أفتح هذا الموضوع أمام «سهام»..

عندما وصلنا إلى البيت أَخْبَرَتْنا «سهام» أن «ثابت أبو السعود» اتّصل توًّا من "أم القيوين" ليخبرنا أن هناك مقابلة غدًا مع مدير البنك الذي يعمل فيه، ويجب أن أكون في البنك قبل التاسعة صباحًا..

تعانَقَتْ السعادةُ مع الخوف في تلك الليلة، فهرب النومُ من عيني وتسلّمني السُّهَادُ ليقضَّ مضجعي ويلهب جفوني، وإيغالًا في تعذيبي كان يدعني لأغفو هُنيهَةً وأصحو بُرْهَةً حتى أَشْرَقَ الصّباح.. فأسرعت إلى "أم القيوين" يصحبني «كمال» في سيّارته تاركًا عمله، كأنّه تفرّغ لي تمام التفرُّغ..

***

الطريق إلى "أم القيوين" طريقٌ وَعِرٌ محفوفٌ بالمخاطر، وأوّل هذه المخاطر "الهجن" التي ترعى في الخلاء بلا صاحبٍ ولا راع، وقد يُثيرها ثائِرٌ فتشطح وهي تضرب الهواء بأقدامها فتطيح بسيارة قادمة، أو يُفاجَأُ بها قائدُ العربة الذي ينطلق بها كالرصاصة فيفشل في كبحِ جماحِ سيارته ويصطدم بالنَّاقة، وتكون النتيجة في الحالتين كارثةً مُروّعة..

أحاطتنا رائحة نتنة اشمأزت لها نفسي وانقبض لها صدري، فرُحتُ أسدُّ فتحَتَي أنفي، ومع ذلك استمرّت الرَّائحة الكريهة تفرض نفسها عليَّ في طُغْيانٍ آثم، وَكَأَنّ كائنات الدنيا منذ بَدْءِ الخليقة إلى الآن نَفَقَتْ في هذا المكان.. ابتسم «كمال» وهو يقول دون أن ينظر إليَّ:

- هذه المنطقة تسمى المقبرة، فيها يدفن الأموات دون أن يقام لهم شواهد، فالكل سواسية تحت التراب..

كنّا قد ابتعدنا عن هذه المنطقة البغيضة وزايلتنا الرائحة العفنة وبدأتُ أملأُ صدري بهواء نقي أزال الانقباض الذي لازمني بعض الوقت..

وصلنا إلى البنك ولساني مازال يلهجُ ببعض الأدعية، ولا أعرف لماذا تذكّرت في هذه اللحظة عينَي ابنتي «هدى» التي تمثلتا لي في براءتها وصفائها، وأخاها «وليد» الذي مازال صراخُه يتردد في أذني وملامحُه الدقيقة تتخايل أمام عيني.. ودعوت الله أن أعود لهما غانِمًا.. كان في انتظارنا «ثابت أبو السعود».. سألني هامسًا:

- أمستعد؟
- أجبته:

- اطمئن.. مازلت أحتفظ ببعض معلوماتي التجاريّة منذ تخرّجت في كلية التجارة قبل عشرة أعوام..
- أومأ برأسه وهو يقودني إلى الداخل:
- عظيم..

دخلت إلى مكتب مدير البنك يسبقني «ثابت» وأنا أسترجع بذاكرتي كل ما أعرفه عن محاسبة البنوك، والائتمان، وخطابات الضمان...إلخ

كان المدير مُتصدِّرًا مكتبه بالزيّ الوطنيّ؛ الغترة والعقال والكندورة تبدو عليه سيماء الإدارة وأُبّهتها، بالرغم من ملامح التودُّد والترحيب التي كان يحاول أن يرسمها على وجهه، فنظرة الصلفِ والتعالي لم تزايل عينيه.. وبدلًا من أن يسألني عن حسابات البنوك فُوجئتُ به يعطيني درسًا في الأخلاق والأمانة، كأنّني لصّ تائب يفترض مسبقًا أنه سيعود إلى ضلاله القديم.. ثم سألني بغطرسة:

- ماذا ستفعل لو لم أعينك في هذا البنك؟
- أجبته بسرعة:

- إن معي تذكرة ذهاب- إياب.. وعلى استعداد للعودة إلى بلدي في أي وقت.. فوجئ بإجابتي، فأطرق بُرهة وهو يحدّقني بعينيه وأخيرًا قال:
- انتظر قليلًا بالخارج..

انضممت إلى أخي حيث كان يجلس في مكتب «ثابت أبو السعود» وقد بدا عليه القلق.. ما أن رآني حتى هبّ واقِفًا وهو يسألني:

- ها.. ماذا فعلت؟

قبل أن أجيب جاءنا «ثابت» مُهروِلًا راسمًا على وجهه الضيق ويقول في شبه عتاب:

- ما هذا الذي قلته للمدير يا عصام؟!!.. كان ينبغي أن تترقق معه وتبدي له التواضع والخضوع..
- أجبته بوجهٍ جامد:
- أفهم من هذا أنني رفضت.. أشكرك على أية حال يا أستاذ «ثابت».. هيا بنا يا كمال..
- تهلّل وجه «ثابت» وهو يندفع نحوي:
- مبروك يا عصام.. وافق المدير على تعيينك في البنك.. يمكنك استلام العمل من الغد..

(٣)

عدت إلى "دُبَيّ" بصُحبة «كمال» وقلبي يرقص طَرَبًا.. لم يكن «كمال» بأقلّ سعادة منّي، ومضى يُسدي لي النصائح الغالية، أمّا أنا فكنت أفكّر في شيء آخر سأفعله أول ما أصل إلى "دُبَيّ"..

ما أن وصلت حتى قمت بالاتصال بالقاهرة لكي أُطَمئن «غادة»، وجاءني صوتُها عبر مئات الكيلو مترات، وقد بُحَّ برنين الفرح وأحسستُ بدموع السعادة وهي تترقرق في عينيها، فها قد ابتسم الزمن أخيرًا لنا، بعد أن ظلّ مُولّيًا لنا ظهرَه سنوات طويلة.. وسمعت صوت ابنتي هدى وهي تُلِحُّ عليها:

- أكلّم بابا..

راحت طفلتي تسألني بعفويّة خنقت صوتي وكادت تَفِرُّ لها دموعي:

- كيف أصبح شكلك يا بابا؟ عد إلينا سريعًا لكي نبقى أربعة..

كان وقْع صوتِ هُدًى على نفسي بالِغَ الأثر، فقد وحشتني طفلتي بالرَّغم من أنّني لم ابتعدْ عنها غير ٧٢ ساعة فقط.. وأسرعتُ أقول لغادة:

- اطمئنّي يا زوجتي الحبيبة.. سوف تستقيم لنا الأمور.. من الغد سأبحث عن مسكن مناسب في "أم القيوين" لكي نعيش فيه سويًّا..

همست قائلة:

- لا تشغل نفسك بنا يا حبيبي.. خذ بالك من نفسك..

وضعت السماعة وأنا أترنّح نشوانًا، وجاءت «سهام» من الدّاخل وقد احمرّ وجهها من فرط السعادة، وصاحت بصوتٍ مخنوق:

- إنني لا أصدق.. أبهذه السرعة تم تعيينك.. هذا لم يحدث في الإمارات من قبل.. أتذكر يا كمال عندما أتى «فريد» أخي ليعمل هنا. ظل شهرًا كاملًا سائرًا على قدميه باحثًا عن عمل، وعندما لم يجد عاد المسكين إلى مصر مكسور الخاطر..

أسرع «كمال» يقول:

- كانت الظروف مختلفة.. والعمل كالزواج تمامًا.. قسمة ونصيب. سأحاول مع «فريد» مرة أخرى، ربما أجد له فرصة عمل مناسبة..

قالت وهي ترصّ الأطباق على السُّفرة:

- لا تشغل بالك به.. له رب.. هيا إلى الغداء..

وفي المساء زارنا جار أخي «كمال» وزميله بالجريدة «علي عزّت» ويطلقون عليه "بيجوفيتش" وهو شاب مرحٌ خفيفُ الظِّلِّ.. أصرَّ أن يدعونا إلى نُزهةٍ خلويّة في إحدى حدائق "دُبَيّ" احتفالًا بتعييني بالبنك.. ورُحنا نشوي اللحم والدَّجاج ونتحدّث ونضحك ونغني حتى الثانية صباحًا..

ونحن عائدون بالسَّيارة قال لي «كمال» إن «ثابت أبو السعود» أبلغه بأن هناك فرصة عمل مضمونة لغادة عندما تأتي.. فأخبرته بأنني سأعمل كل طريقة لإنهاء إجراءات تثبيتي حتى أتمكّن من إحضارها.. وعندما وصلنا إلى البيت لفت انتباهي أن «سهام» لم تفتح فمها بكلمة طول الطريق..

نمتُ ليلتي مطمئن البال، قرير النفس، أعدّ نفسي لأول يوم عمل، وأنا أتساءل: تُرى، ما مذاق النقود هنا؟.. بالتأكيد تختلف عن النقود التي نتقاضاها في مصر مغموسة بالتُّراب والطِّين والعرق والدُّموع.. ورحت أتشوّق لأول نقود تَقْبِضُ عليها يدي..

في اليوم التالي تهيّأتُ مُبكِّرًا للذِّهاب إلى البنك، وأصرَّ «كمال» على المجيء معي لتوصيلي، فقلت له:

- أُشفقُ عليك من عبءِ توصيلي هكذا، وكأنني تلميذٌ في حاجة إلى وليّ أمر.. قريبًا سأبحث عن مسكنٍ في "أم القيوين" وأُريحك من مِهنة التوصيل هذه.

صاح «كمال» في حزم:

- لا تُعِدْ هذا الكلام على سمعي مرّة ثانية.. أنت في حاجة إلى كل درهم، وأرى أن توفّر ما ستنفقه في المسكن، وتقيم معنا في البيت..

لم أردّ.. ليس رضوخًا لما قاله أخي، ولكن لعدم الخوض في جِدالٍ حول قضيّة مسلّم بها.. وصلنا إلى البنك. كان في انتظارنا «ثابت أبو السعود» الذي أدركتُ أنه يحتل مكانة كبيرة في البنك.. وقد اختلفت

شخصيته تمام الاختلاف عن الشخصية التي استقبلنا بها أول مرة.. فقد صار أكثر جدّيّة وصرامة واختفت الابتسامة من وجههِ إلى غير رجعة.. حتى أنني لم أعرفه.. قال لي:

- يوجد لدينا مصريون كثيرون.. سوف أقدِّمك لهم، ولكن أوَّلًا أريد أن أُسدي لك بنصيحة هامّة.. فهل تقبلها منّي؟

رحت أقول بحماس:

- إنني في حاجة إلى كل نصيحة.. إليَّ بها..

سكت «ثابت» قليلًا قبل أن يقول بهدوء:

- ليكن كلامك قليلًا، واحتفظ برأيك لنفسك، واعمل ما هو مطلوب منك فحسب، ولا تتدخّل فيما لا يعنيك..

نظرت له مليًّا، ثم قلت وأنا أعقّب:

- إذن فقد جئت إلى المكان المناسب..

قطعتْ حديثنا امرأة نحيفة في نهاية الثلاثينيات، تضع إيشاربًا فوق رأسها وصاحت من خلف عوينات سميكة، خُيِّلِ إليَّ أن بؤبؤ عينيها ملتصِقٌ بالعَدَسَات:

- وافدٌ جديد؟

- أسرع «ثابت» يقدِّمني لها:
- تعالِ يا مدام «خيرية».. هذا زميلنا الجديد «عصام»..

أسرعتْ نحوي مُرحِّبَةً، ومضت تُحدِّثُني في موضوعات كثيرة دون توقّف، وكان الانطباع الأوّل الذي أخذته عنها أنّها ثرثارةٌ وقرَّرتُ أن أحترسَ منها..

وتوالى بعد ذلك ظهور الموظّفين، وكلّما ظهر واحدٌ كان «ثابت» يقدِّمُني إليه:

- «سعيد زيادة».. رئيس قسم الكمبيو بالبنك..

(رجلٌ يُناهِزُ الخمسين.. سمين.. أكرش.. مُنتَفِخ الأوداج.. يضحك بلا داعٍ، حتى شعرت أن اسمه منطبقٌ عليه.. له ضَحِكة صفراء وابتسامة ثُعبانيّة خبيثة اتخذت مكانها الدائم فوق شفتيه.. أظرف تعبير تبادر إلى ذهني عنه "مهرج الملك"..)

- «فاروق السبيلي».. مُراقب حسابات..

(شاب في منتصف الثلاثينات.. يتحدث بقطّارة وبحرص.. دائمًا يُوجِد تبريرات لتصرّفاته حتى لو لم يستدعِ الأمر ذلك.. منذ الوهلة الأولى أحسست بما يُكنه في نفسه لثابت وخيرية من كراهية، لم تخفها

الابتسامة التي كانت تتخايل على وجهه، فلم تزد عن أحمر الشفاه الذي تضعه خيرية على شفتيها بحكم العادة، فلم يضف إليها جمالًا..)

ثـم جـاءت «وداد شـكري»، فاسـتدارت «خيريـة» وهـي تلـوي شفتيها في تبرّم واضح، فسلّمتْ «وداد» على الجميع إلا «خيرية» ولاحَ ما بينهما من بُغضٍ قديمٍ يُجدِّدانه عند اللقاء كل صباح..

بعد ذلك أخبرني «ثابت أبو السعود» أني سأعمل في قسم الكمبيو مـع «سـعيد زيـادة»، فقلـت في نفسي: "ألم تجـد غـير هـذا؟".. لكنني تراجعت سريعًا، فقد يكون «سعيد» أفضل من غيره.. الجميع هنا لا يطمئنون، وقررت أن أكون كتابًا مُغلقًا.. سآخذ حذري من الجميع حتى من «ثابت أبو السّعود»..

(٤)

وكأن "أم القيوين"، تلك الإمارة الصغيرة، قد امتلأت فجأة بالسُّكان، فلم يعد فيها مسكنٌ خالٍ، وأكّد لي «ثابت أبو السعود» أن هذه الإمارة لم تكن تجد من يسكنها قبل شهر.. لدرجة أن الشقّة كانت تعرض بثلاثمائة أو أربعمائة درهم في الشهر، أما الآن فالشقة إن وجدت تصل إلى ألف درهم شهريًّا.. وهذا بالطبع لم يكن يناسب ظروفي..

مضت أيام وأنا أبحث وأنقّب سواء بمفردي أو مع «ثابت أبو السعود»، لدرجة أن أخي نهرَني ذات يوم قائلًا بعصبيّة:

- لماذا تسعى إلى مفارقتي؟.. هل بَدَرَ منّا شيءٌ نحوك.. نحن جميعًا نعمل على راحتك.. حتى «سهام» تحثّني دائمًا على السؤال عنك، وهي التي ألحّت عليَّ لكي آتي وآخذك إلى "دُبَيّ".. ما الذي تريده أكثر من هذا؟!

رُحْتُ أقول:

- يا أخي المسافة بين "دُبَيّ" و "أم القيوين" تتجاوز الخمسين كيلومترًا، ليس من العدل أن أدعك تقطعها ذهابًا إيابًا كل يوم.. ثم إن وجود شقّة لي بالقرب من مكان العمل سيخفّض كثيرًا من التكاليف..

صاح في انفعال:

- وهل اشتكيت لك؟

ومع ذلك لم أَكَلّ أو أَيْأَس.. كنت أبحث عن المسكن بيدي وقدمي وأسناني، حتى أنني حدثت فيها عم «أردشير» عامل التكييف الباكستاني، و«ميسرة» سائق البنك السوداني، و «زهور» الساعي الهندي..

مرّت أيام أُخَرْ دون أن أقف على شيء، ظللت حائرًا خلالها بين "دُبَيّ" و "أم القيوين".. أخيرًا وبعد جهد جهيد عثرت على الشَّقّة، فقد أوجدها لي عم «أردشير»، أخبرني ذات صباح أن الشَّقّة التي تعلو شقّته مُغلَقةٌ منذ فترةٍ طويلة، وقد حدَّثَ بشأنها الناطور (وهو بواب البناية أو حارسها الخصوصي، وفي نفس الوقت بمثابة وكيل أعمال صاحب البناية) فوافق على الفور..

أسرعتُ إلى هناك لأجد شقّة واسعة فسيحة تطلّ على لسان متّصل بمياه الخليج، وأخبرني "الناطور" بأن عليَّ أن أدفع قيمة الشَّقّة لمدة عام نصفها نقدًا والآخر بشيكٍ يُستَحَقُّ بعد ستة أشهر..

دارتْ رأسي.. عليَّ أن أدفع ما يقرب من خمسة آلاف درهم دُفعةً واحدة، بالإضافة إلى الشِّيك، وأنا ليس لديَّ رصيدٌ في أي بنك حتّى أكتُبَ شيكًا على نفسي.. لم أحْتَرْ كثيرًا، وحمدت الله أن أخي «كمال» لا يبعد عنّي بأكثر من خمسين كيلو مترًا، فاتّصلتُ به كي يأتي لرؤية الشَّقّة..

دخل «كمال» الشَّقّة، وبالرغم من محاولة إظهار استيائه بها وهو يُعدد مثالبها لم تخف عيناه إعجابه بها، ووقف في شرفة البيت يديم النظر إلى مياه الخليج وقد امتدتْ لتتَّصل بالمياه الصافية، ومَرَقَ من أمامنا يَخْتٌ صغيرٌ شقَّ مياه الخليجِ مُحْدِثًا خشخشة ناعمة، فأومأ «كمال» وهو يُغَمغِم:

- على خيرة الله..

وحمدت الله أن أصبح لي بيتٌ آوي إليه بعد عناء العمل، بدلًا من مشقّة السفر كل يوم بين "دُبَيّ" و "أم القيوين".. وودّعتُ «كمال» وأنا

أشكره مؤكِّدًا له أنّي سأُسدِّدُ ما دفعه لي خلال أشهر قلائل، فقال لي وهو يُديرُ محرِّك سيارته:

- لا تشغل بالك بهذه الأمور والتفت إلى عملك..

وقفت في شقّتي الجديدة أتأمّل الصالة الواسعة وغُرفَ النوم الفسيحة والأسقف المرتفعة، أملأ صدري من هوائها المتجدِّد كأنّها تحملني على التخلّص من عُقدة ضيق الأمكنة التي ابتليت بها منذ وجدت في هذه الدنيا، وشعرت أن الشَّمس تزحف نحو المغيب وينبغي عليَّ أن أُحضرَ سريرًا كي أنام عليه، وإلا سأضطر إلى النوم على البلاط..

سرعان ما توصّلت إلى محلٍّ قريبٍ يملكه رجل هنديّ فاشتريت منه السرير، ولولا أن السرير كان معروضًا بالصُّدفةِ لما فهم ما أبغي شراءه.. لأنني بعد ذلك حاولت أن أُفْهِمه أني أريد مَرْتَبَةً لأضعها فوق السرير فلم يعِ ما أقول، وكل حين يهزّ رأسه وقد غُمّ عليه مطلبي.. أخذت أشير بيدي وأمثّل بجسدي بلا جدوى.. وأحسست للوهلة الأولى بصعوبة التفاهم هنا، كأنني قصدت كوكبًا آخر، وليس بلدًا عربيًّا شقيقًا.. ولَحَني رجلٌ هنديٌّ نابِه كان يجلس معه.. فاقترب منّي وهو يصيح:

- ماتريس..

وأشار إلى مرتبةٍ إسفنْجيّة بداخل المحل.. أمسكتُ بها كأنني عثرتُ على سرِّ الحياة، وبعد أن نقدته الثمن حملت متاعي على عربة صغيرة وانطلقت بها إلى البناية..

في ثوانٍ معدودةٍ كان السرير مُعدًّا للنّوم.. قبل أن ألقي بجسدي فوقه فُوجِئتُ بطَرْقٍ خفيفٍ على الباب، عندما فتحتُ وجدتُ أمامي «أردشير» عامل التكييف الباكستاني الذي يقطُن في الشَّقّة السُّفليّة، وقد تراقصت ابتسامة فوق شفتيه وقال بعربيّة ركيكة:

- مبروك..

حَيَّيته ودعوته إلى الدخول وأنا أعتذر له لعدم إمكاني القيام بواجبات الضيافة، فالشَّقّة لا تحتوي على شيء سوى هذا السرير الصغير، ضحك وهو يُعقِّب:

- اطمئن.. كل شيء سيأتي تباعًا، لكنني جئت لشيء آخر..
- خيرًا يا عم «أردشير»..
- أريد أن أسدي لك بنصيحة أرى أن الواجب يُحتِّم عليَّ أن أنقلها لك..

- تفضّل..

توجه «أردشير» نحو الباب.. أحكم إغلاقه.. ثم تلفّت حوله كأنّه يتأكّد من عدم وجود أشخاص آخرين معنا، ثم قال هامسًا:

- احذرهم يا بني.. احذرهم جميعًا.. لا تثق في أحد على الإطلاق حتى أنا.. للأسف نحن في مُستنقَع.. الكل هنا يكرهون بعضًا، وينقلون إلى المدير كل صغيرة وكبيرة، كلٌ منهم يسعى لأن ينهي عمل الآخر ويقطع رزقه بيديه..

قاطعته:

- الأرزاق بيد الله يا عم «أردشير»..
- ونعم بالله يا بني، ولكن خذ حذرك، لن يَدَعوكَ في سلام..

صحت مندهشا:

- وهل يصدِّق المديرُ كُلّ ما يُقال له؟

ضحك «أردشير» وهو يعبث بلحيته الخفيفة النافرة:

- المديرُ أُذُنٌ فقط يا بني.. كُلُّ شيءٍ يُنقلُ إليه يُصدِّقه وهو مغمض العينين.

كِدتُ أعترض لكنني تذكّرت تحذير «ثابت أبو السعود» فأمسكت قبل أن أفوه بكلمة، ثم قلتُ:

- لقد تركنا بلادنا وأهلنا يا عم «أردشير» من أجل لقمة العيش ولولاها لظللنا ننعم بدفئها راضين بما أفاءه الله علينا من رزق يسير..

أومأ الرجل برأسه، ثم أمسك يدي يستحلفني:

- أرجو ألا تذكر لأحد أني تحدثت معك في شيء، إنما حديثي معك مبعثه حبي لك الذي نما منذ جئت إلى هنا، وخوفي عليك من أناس أنت تختلف عنهم في كل شيء..

ربت على جسده الضئيل وأنا أقول مُطَمْئنًا إياه:

- اطمئن يا عم «أردشير».. فليس من شيمتي البوح بما لا يعنيني..

تركني «أردشير» وهو زائغ البصر نادمًا على ما باح لي به من أسرار، يعتقد أنه الوحيد الذي يعرفها..

(٥)

بت ليلتي وحيدًا في الشّقّة الواسعة الخالية من كل شيء إلا من سرير ضئيل يتمدّد فوقه شخصٌ وحيد هو أنا.. حَمْلَقَتْ عيناي في سقف الحجرة المُظلِم وجَرَتْ على الجدّرانِ الصّمّاء، فأحسستُ أن خيالات تتوالى عليها بانتظام.. وتَسَلَّلَتْ إلى أُذُني همسات مياه الخليج وهي تتلاطَمُ بالخارجِ كأن نَفَرًا من الجِنّ قد اجتمعوا في حُجْرَتي وقرَّروا أن أكون تَسْلِيَتَهُم الوحيدة حتى الصباح..

اقشعر بدني لأول مرّة في حياتي منذ كنتُ طفلًا صغيرًا يسلّم رأسَه لأصابعَ جَدَّته العجوز كي تعبث به، وهي تقُصُّ عليه حكاياتِ الجنّ والعفاريت، فإذا بها تتمثّل ليَ الليلة بالذات وأنا قابعٌ في فراشي، رحت أتْلُو بعضَ آياتٍ من القرآن الكريم كي أستعيذ بها من شرِّ هؤلاء وشياطينهم..

مَصْمَصْتُ شفتَيَّ وأنا أتذكّر زوجتي في شَقَّتِنا الضَّيِّقة وقد تمدَّدتْ هي الأخرى في فراشٍ خالٍ باردٍ ليستْ به حياةٌ إلا قلب نابض.. وتساءلْتُ.. أتسْخَرُ الحياةُ منَّا إلى هذا الحد؟.. هل حُكِمَ علينا أن نعيش معًا في منزلٍ ضيِّقٍ يصطدِمُ بعضنا ببعضٍ فيه، أو يعيش كل منّا في منأًى عن الآخر لينعمَ بهذا الاتساع الرهيب الذي لا أَشْغَلُ فيه سوى حيِّزٍ ضئيلٍ لا يزيد عن حجم جسمي النحيل..

ورحت أهمسُ مُناجيًا زوجتي على بُعدِ مئات الكيلو مترات.. لعل المناجاة تُذيب ما بيننا من مسافات..

- أحبُّكِ.. ولا أحب من بنات حوّاء سواكِ..
- أَعَرِفْتَ قَدْري الآن؟
- قَدْرُكِ أعرفه منذ التقينا، بل منذ وقعتْ عيني عليك ونبض بداخلي ذلك الشعور الذي احتوانا..
- و «ناهد».. زميلتك في الشركة؟ ألم يكن إعجابك بها شعورًا كالذي تتحدث عنه.. لا تحسب أن بريق عينيك واحمرار أذنيك وشرودك في الأيام الأخيرة ومكالمات منتصف الليل خافية عنّي.. كانت عاصفةً قويّةً كادت تعصفُ بعُشِّنا الذي تَعِبنا في بنائه..

- كم أشعر بالندم يا حبيبتي من كل لحظة تركتك فيها وذهبت إلى أي مكان آخر، وعن كل شاردة أبعدتني عن حدود التفكير فيك.. ولكنني كم أنا سعيدٌ بهذه التجربة (تجربة الاتصال بامرأة غيرك) لقد تكشّفتْ لي الحقيقةُ بعد أن غادرتُ مصر، واستطعتُ أن أرى الأمور على حقيقتها.. اكتشفت أني أحبك بشكل غريب.. وأي أنثى أخرى ما هي إلا عابرةٌ ليس لها أثرٌ على الإطلاق.. ربما في لحظة لا أدري كُنهها كنت أبحثُ عنك فيها، ولكن أكّدتْ لي الأيامُ الماضيةُ أننا صرنا نحنُ الأربعة جسداً واحداً..

خُيّل إليّ أني أسمع صوتها تتساءل في خفة:

- ماذا بك يا عصام؟

- «عصام».. كم اشتقت إلى سماع اسمي بين شفتيك.. لم أعد أستعذب رنينه ذا الجرس الموسيقي من خلال مداعباتك.. صدَق حدْسك يا حبيبتي . كأنك تشعرين بي، هذه الأيام لستُ على ما يرام، بالرّغم من أنّ كلّ شيء يسيرُ طبيعيًا فهناك أمورٌ بدأت تقلقني؛ أول هذه الأمور: الخوفُ من الفشل الذي

يداهمني كلما اختليت بنفسي.. وثانيها: تأشيرة الإقامة التي تأخرتْ كثيرًا.. فالتأشيرة الممنوحة لي في جواز السفر زيارة سوف تنتهي بعد أسابيع. أما ثالثها: فهو العفريت القابع في أعماقي..

أحاطني الصمت من كل جانب، وياله من صمت.. فللصمت دوي يصم الآذان أشبه بقرع المقارع، وخيل إلي أن عفاريت تجوس في الخارج سوف تقتحم عليّ المكان في أي لحظة.. تساءلت وأنا منكمش في فراشي.. ما شكلهم؟.. ما طبيعتهم؟.. هل لهم لغة يتحدثون بها؟..

وتذكّرت أن العفريت ليس بالسذاجة حتى يكشف لي عن وجهه المرعب ليقول لي.. ها أنا ذا عفريتك، وسوف أتسلّى بك حتى الصباح.. إنما متعة العفريت وأصدقائه من أهل الجان أن يتلذذوا بما أنا فيه الآن من رعب ووجل، وأنا أترقّب ظهورهم بين لحظة وأخرى.. وهمست فيما بيني وبين نفسي.. لن يظهروا.. أجل.. لن يظهروا لأظل أنا منكمشًا هنا حتى الصباح..

لم أطمئن إلا بعد أن تسللتْ أشعة الشمس من بين خصاص النافذة لتلقِ على الجدران خطوطًا متوازية، فأسرعتُ أفتح النافذة لأرى

وجه النهار الأليف الباسم غير وجه الليل المظلم الوحشي الذي أصابني بالأرق والخوف، بدأت أرتدي ملابسي وأتهيأُ للخروج من البيت دون أن أذوق للنوم طعمًا..

***

كنت أمام البنك قبل موعدي بساعة أو تزيد.. فتح لي «زهور» وهو يتفرّسني دون أن ينبس بكلمة.. دخلتُ مكتبي لأجد كل شيء نائمًا في مكانه.. الأوراق والدّفاتر والآلات الحاسبة وأجهزة الكمبيوتر، ولولا دقّات الساعة التي أمامي لحسبتها شخيرًا منتظمًا للأجهزة والأدوات..

انتبهتُ فجأة على صوت أنثوي ناعم يحدث «زهور» بالخارج:

- أجاء الموظّف الجديد؟.. أين هو؟.. دعني أتعرّف عليه..

ووجدت أمامي فتاة صغيرة تناهز الثامنة عشرة راحت تحدِّثني بلكنةٍ شاميّة وهي تشيع جوًا من المرح، كأنها طفلة عثرت على دمية ستلهو بها بعض الوقت..

- يا هلا ومرحبا فيك.. لم يسعنا أن نلتقي من قبل، فقد كنت في إجازة حين وصولك.. أنا «جوجوش» سكرتيرة المدير العام..

أومأتُ لها مبتسمًا وأنا أسألها:

- من الإمارات؟

ضحكت في براءة، وهي تصيح:

- حزر..

قطّبتُ ما بين حاجِبَي وأنا أُخمّن:

- سوريا.. لبنان.. الكويت.. البحرين..

انطلقتْ في ضحكٍ طفولي، ثم صاحت:

- لن أشقّ عليك.. إنني إيرانيّة المولد، عراقيّة الجنسيّة، سوريّة التعليم، وإماراتيّة الإقامة والعمل.. ما رأيك؟

واندفعتْ في موجةٍ من الضَّحِك اختلطت بين البراءة والإغراء، ثم هرعت إلى مكتبها إذ سمعتْ محرّك سيارة بالخارج، وظهر بعد قليل المدير العام بطوله الفارع وغترته البيضاء وهو يحدجني بنظرات مريبة ويسترقّ النَّظر بيني وبين مكتب «جوجوش»، فأسرعتُ أرسم ابتسامةً فوق وجهي وأُلقي عليه تحيّة الصباح.. ردّها باقتضاب وأسرع إلى مكتبه..

دقّ قلبي في عنف.. ماذا ظنّ بي الرجل؟ وما سرّ هذه النظرات المريبة التي اعتلت وجهه؟.. عدت أهوّن على نفسي:

دعك من هذه الأوهام.. لو توقّفت عند كل نظرة أو كلمة، لن تبقى في هذا المكان يوما واحدا..

بعد ذلك جاء «ثابت أبو السعود»، ألقى عليّ بتحية صباح جامدة استعارها من لهجة المدير العام ودخل مكتبه.. ثم جاءت «خيرية» و«وداد شكري» فـ«فاروق السيلي»، وأخيرًا «سعيد زيادة» الذي دخل كعادته وهو يلقي نكاته السخيفة التي لا تتناسبُ مع سنّه وهيئته، صاح مُحدِّثًا «زهور»:

- هل حضر أبوك؟

غمز «زهور» بطرف عينيه بالإيجاب، فأسرع «سعيد» بحركات بهلوانيّة نحو حجرة المدير وغاب داخلها.. وانتبهتُ على صوت «خيرية» يسألني:

- أستاذ عصام.. ماذا كنت تعمل في مصر؟

رفعت رأسي وأنا أجيبها:

- محاسب في أحد مكاتب التصدير والاستيراد..

وكأنها وجدتْ ثغرةً فأسرعتْ تُعلّق:

- آه.. حسابات التصدير والاستيراد تختلف تمامًا عن العمليّات البنكيّة..
- جانب كبير من عمليات التصدير والاستيراد يعتمدُ على العمليّات البنكيّة، ومع ذلك فأنا حاصلٌ على ماجستير في محاسبة البنوك..

كنت أظن أن مجرى الحديث سينتهي عند هذا الحد، لكنني وجدتُها تقترب مني وهي تثرثر:

- فرقٌ كبير بين الدراسة النظريّة والتطبيق العملي، بل إن العمليات الحسابية نفسها قد تختلف في مصر عنها في الإمارات..

ابتسمت وأنا أقول مؤكّدًا:

- لكن الطرق المحاسبية واحدة في كل مكان..

جلستْ بجانبي وهي تُثبّت عويناتها السميكة فوق أنفها بحركة لا إرادية وتعقّب:

- أرجو أن تنسى كل ما عرفته عن المحاسبة في مصر.. أسلوب العمل هنا يجري بطرق مختلفة عما يحدث هناك.. هناك مازالوا يسيرون حثيثًا وراء أجهزة مستهلكة أكل عليها الدهر وشرب، أعظَمُها الكمبيوتر..

نظرتُ لها في استخفافٍ وأنا أقول:

- يبدو أنك تعيشين هنا منذ عهدٍ بعيد، فلم تُشاهدي الطفرات المتلاحقة التي حدثت في مصر في مجال التكنولوجيا، وتكنولوجيا الكمبيوتر بالذات..

هزّت منكبيها في استعلاء:

- سمعت.. لكن هنا في سنوات قلائل حقّقنا ما حقّقوه هناك في عشرات السنين..

ابتسمتُ وأنا أقول في دهشة:

- تتحدثين وكأنّكِ لستِ من مصر..

ضَحِكَتْ وهي تضيف:

- لقد أكملت هنا عشرين عامًا.. أكثر من نصف عمري قضيته في هذا البلد، حتى خُيّل إليَّ أنّي وُلدتُ هنا..

همستُ داخلي:

- لك الله يا مصر.. باعَكِ كثيرون بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيكِ من الزَّاهدين.

ضحكتْ بخبثٍ واقتربتْ من أذني وهي تهمس:

- أنت حديثُ العهد هنا، لم تعرف شيئًا بعد.. لكن الدرس الأوّل الذي يجب أن تعيه جيّدًا هو أن وطنك من يدفع لك أكثر.. هذا هو الانتماء الحقيقي..

مرّت عليَّ سحابة من الكآبة شَمَلَتْني، وتمنّيتُ أن يمرّ اليومُ سريعًا، خاصّة وأنّ الأرقَ الذي أصابني بالأمس بدأتْ آثارُه تظهرُ عليَّ خلال اليوم، فشعرتُ بإرهاقٍ في جسدي وثِقلٍ في جفوني وغثيان، وعندما حانت ساعة انتهاء الدوام اليومي أسرعتُ إلى البيت، وألقيت بجسدي الـمُنهَك على فراشي الصغير، ورُحتُ في نومٍ عميق..

***

(٦)

دارت الأيام دورتها حتى اعتدت دورانها الرتيب، فأقضي في "أم القيوين" ستة أيام ما بين البنك والبيت.. واستطاع أخي «كمال» أن يتّفق مع أحد المطاعم لكي أتناول فيه وجبة الغداء يوميًا بخصم خمسين في المائة.. ثم أخذني إلى أحد الفنادق لشراء بعض الأثاث القديم بسعر منخفض.. وبذلك امتلأت الشّقّةُ الفارغة، فأصبح فيها غرفة نوم كاملة، وسريران صغيران لـ«هدى» و «وليد».. وأنتريه إيطالي رائع، لم يبق سوى بعض الأجهزة وتكون الشّقّة جاهزة لاستقبال العائلة..

وفي نهاية الأسبوع أذهب إلى "دُبيّ" للإقامة في بيت «كمال» وكان أهم شيء في هذه الزيارة مكالمة الجمعة التي أستمع فيها إلى صوت «غادة» وضحكة «هدى» ومناغاة «وليد»، فأشعر أن الحياة تدبّ في أوصالي وتؤكّد وجودي.. وهكذا أصبحتُ ترسًا ضمن تروسها الكثيرة، وكان عليّ أن أروّض ترسي قبل ترويض جميع التروس..

ومن بين هذه التروس «وداد شكري».. امرأة في بداية الثلاثينيات متوسطة الجمال، ومع ذلك تشعر داخل داخلها أنها تمتلك جمالا خارقا لتكتسب ثقة في نفسها أكثر مما ينبغي.. مُعجَبة.. "لا تسلّم على أحد بيدها على الإطلاق.. إلا المدير العام.. وكأن سعادته من الأشراف أو من أولياء الله الصالحين.. تتحدّث مع الجميع بغطرسة.. والجميع يعملون لها ألف حساب.. دائما تتردد على لسانها جملة واحدة حتى صارت لازمة تُعرفُ بها "أنا -بعون الله- أستطيع أن أفعل كذا..

تثور لأقل سبب وتدخل للمدير العام وهي تلقي في وجهه بالاستقالة.. وتُقسمْ ألا تعود ثانية.. ويظلّ المدير العام يحايلها ويعدْها بزيادة راتبها حتى ترجع في القسم الذي أخذته على نفسها..

لم يَدُر بيني وبينها سوى حوار واحد عندما ركبتْ معي في سيارة البنك وراحت تقول:

- هذا المدير لا يفقه شيئا على الإطلاق.. لولاي خرب هذا البنك منذ سنين.. قريبا سأترك له البنك مخروبا على رأسه.. هذا الإمّعة الحقير.. فأنا بعون الله أستطيع العمل بمجرّد ترك هذا البنك في أفضل بنوك الإمارات..

ولم أدْرِ ماذا أقول لها.. لو دافعت عن المدير ستأخذُ منّي موقفًا عدائيًّا. وربما تثير المدير ضدي، ولو وافقتُها على رأيها سيسرع «ميسرة» السائق بإبلاغ رأيي إلى المدير.. فأسرعت بتغيير مجرى الحديث..

***

ما أن فتحتُ عيني حتى أسرعتُ إلى البلكون المطلّ على مياه الخليج ليتسنّى ليَ مشاهدة أول ضوء لآشعة الشمس وهو يبزغ في الأُفُق بادئًا يومًا جديدًا عليَّ وأنا بعيدٌ عن مصر، واليوم هو الحادي والعشرون منذ غادرت القاهرة، ويبدو الرقم ٢١ هيّنًا للعين، فهو مكوّنٌ من رقمين فقط.. لكن يُخيل إليَّ أنه مكوّن من خمسة أو ستّة أرقامٍ مُركّبة وثقيلة ومُملَّة.. يزيد من قَتَامَتِها بُعدي عن الأهل والأحباب.. وكلّما تذكّرتُ «غادة» برقَّتِها و«هدى» ببراءتها و«وليد» بصفائِه أُحِسُّ بوخزةٍ في قلبي وغُصَّةٍ في حلقي.. وأتمنّى أن أترك كل شيءٍ وأعود..

مَرَقَ برأسي حديثُ «خيرية» عن الانتماءِ الـمُزَيَّفِ كأنّه سحابة سوداء احتوتني فكدَّرتْني، سُرعانَ ما نَحَّيْتها بعيدًا لأخْلُص لهذا الجوِّ الصافي، ورُحتُ أتأمّل الشَّمس الوليدة وهي تظهرُ طافيةً على سطح المياه، وتبدأ في الصّعودِ شيئًا فشيئًا لِتَتَّخذَ لنفسها مَسَارًا على صفحة

السماءِ الصافية، لتدورَ دورتها اليوميّة في اتّجاه الغرب، وتذكّرتُ أنّها ستمرّ حتمًا على مِصْرِنا الحبيبة التي حُرِمْتُ منها قِرابة الشَّهر.. مرّ عليَّ كأنّه أعوام، فتمنَّيتُ أن أتسنَّم قُرصَ الشمس ليأخذني إلى هناك..

عاد الخوف من الفشل يجرفني في دوّامة اليأس، وتبددتْ مخاوفي لدى وصولي إلى البنك حيثُ أخبرني «ثابت أبو السعود» أن الإقامة قد وصلت، وينبغي للحصول عليها أن أُغادر الإمارات وأعود مرّة أخرى؛ حتى يتم وضع الخاتم على الباسبور "تصريح عمل بدلًا من زيارة" واقترحَ عليَّ أن أسافر إلى قطر وأقضي في صالة الترانزيت حتى يحين موعد طائرة العودة..

كيف لي بتكاليف السفر وأنا لم أتقاض درهمًا واحدًا، لم أجد مفرًّا من اللجوء إلى أخي «كمال».. عندما وصلتُ إلى بيته فتحت لي «سهام» بوجهٍ جامدٍ وعينين زائغتين.. ألقيتُ عليها السلام فردتْ باقتضاب ودخلتُ.. أدركتُ أنه ربما مشاجرة تفجّرت بينها وبين أخي.. وفي المساء اختليتُ بأخي وطلبتُ منه خمسمائة درهم لشراء تذكرة سفر إلى قطر ووعدّته بأنني سأسدد كل ما أخذته منه فور حصولي على أول راتب..

وقفت في مرقب السيارات بـ"دُبيّ" في انتظار سيارة تُقلّني إلى المطار.. كانت الساعة تقترب من السادسة صباحا عندما توقفت سيارةٌ فخمة بيضاء يقودها خليجيّ بغترة بيضاء وعقال أسود، ونزلتْ منها غَيْداء.. فارعة الطول، ينسدلُ شعرُها الأسود الفاحم في انسيابية ليغطي منكبين رقيقين، بينما برز نهداها في تألّق مثير.. تشعُّ فتنةً وإثارة لفتت انتباه كل من بالمرقب وأولهم أنا، ورحت أتتبع خطواتها وهي تتهادى برقّة بالغة فتهتزُّ فيها كل خلجة.. حتى وصلتْ إلى المرقب فصاحت بلهجة خليجية مصطنعة:

- ما في سيارة تتجه للمطار؟

وتبارى كل السائقين لتوصيلها، فاختارت إحدى السيّارات جلست فيها بينما أسرع قائدها إلى محل القيادة فصاحت مشترطة:

- ليكن في معلومك.. لن أركب مخصوص..

أدار الرجل سيارته وهو يقول:

- كما تبغين يا سيدتي..

أشارت له بالتوقف وهي تقول:

- انتظر.. هل ستأخذني للمطار وحدي؟ يا شباب. من يبغي الذهاب إلى المطار فليأت..

اندفع العشرات نحو السيارة وكنت أنا بينهم، وفي لمح البصر امتلأت العربة وانطلق السائق بها في طريق المطار وهو يرغي ويُزْبِد.. وجاء جلوسي بجوارها دون قصد، فأخرجتْ نظارةً شمسيّةً عريضةً أخفتْ نصف وجهها، وأسندت رأسها على زجاج النافذة وانشغلتْ بالطريق، بينما كنت أتحاشى أي تلامس بيني وبينها فتتهمني بالتَّحرُّش.. بالرغم من أن أنوثتها الطاغية هي التي كانت تتحرَّش بنا جميعًا..

أخيرًا وصلنا إلى مطار "دُبَيّ" الدولي الذي أنقذني من جِلسة الكهرباء التي عانيت منها ما يقرب من نصف السَّاعة.. وفوجئت بها أمامي في صالة الجوازات تمسك جوازًا مصريًّا.. وعندما جلسنا في الطائرة جلست بجانبي أيضًا، ووجدتها فرصة لِتَجَاذُب أطراف الحديث معها بدلًا من الجلوس صامتين لخمسة وأربعين دقيقة هي المدة بين "دُبَيّ" وقطر فسألتها:

- حضرتك مصريّة..

أومأت وهي تقول باختصار:

- أجل..
- تشرّفنا..

قلتها نادمًا على تطفّلي، لكنها أسرعت تجيب بلهجةٍ ريفيّةٍ مُتَمَدْينة.. كمنْ وجدتْ من يُسلّيها حتى تصل إلى مطار الدوحة:

- يزيد فضلك يا خويا.. على رأي المثل: «من خرج من داره اتقلّ مقداره». كنا نعيش في خيرها دون أن نشعر بها.. وجئنا للعذاب برجلينا.. لعن الله تلك القوانين التي تقلب الأحوال.. وتشحطط الإنسان من حال إلى حال..
- أمقيمة في "دُبَيّ" أم في قطر؟
- لا في هذه ولا في تلك.. لي في الإمارات عشر سنوات لم أستمرّ خلالها على حال.. تنقّلتُ من عملٍ إلى عمل، ومن كفيلٍ إلى كفيل، ومن شركةٍ إلى شركة.. فلم أفرح خلالها بخاتم الإقامة على باسبوري ليومٍ واحد.. وفي كل مرّة أسافر إلى قطر لتجديد الإقامة ثم أعود.. ونحن هُنا يا عزيزي على كفّ عفريت.. إذا أصبح الصباح فلا تضمن أن يأتي المساء وأنت هنا، وإذا حضر

المساء فقد يُخبئ لك الصباح قرار تفنيشك.. ترى ما الذي يخبئه لك الغد يا «شوشو»؟

- ما طبيعة عملك يا مدام «شوشو»؟

بدا الارتباك على وجهها لكنها أسرعت تقول بثبات:

- علاقات عامة..

ثم عادت بظهرها إلى الوراء وأسندتْ رأسها على كوّة الطائرة وراحت تتابع السُّحبَ تحتها وهي تتفرّق وتتجمّع.. وأدركتُ أنني أخطأت عندما سألتها سؤالًا كهذا..

***

صالة الترانزيت بمطار الدوحة الدولي.. يتطلب الأمر قضاء حوالي عشر ساعات كاملة.. لا أدري ماذا أفعل خلالها.. وأنا أمسك على بضعة دراهم قليلة لا أستطيع أن أتحرّك أو أطلب أي شيء.. وعندما عضّني الجوع ذهبت إلى قاعة المطعم بصالة الترانزيت وطلبت ساندويتش دجاج وكوب شاي.. دفعت مقابلها عشرون درهمًا..

رحت أبحث عن مدام «شوشو» في صالة الترانزيت فلم أجدها.. وأدركت أنها قررت أن تختفي في ركن تجنُّبًا لأسئلتي الفضوليّة.. بينما أنا

جالس.. فوجئت بيد تُرَبِّتُ على كتفي وصوت يناديني باسمي.. عندما التفتّ وجدت «حمدي رفعت» زميل الدراسة.. كُنّا معًا في كُلّيّة التجارة وعلمت أنه سافر الخليج فور تخرّجه، وانقطعت أخباره.. اندفعت نحوه معانقًا:

- يخرب عقلك يا حمدي.. ماذا تفعل في صالة الترانزيت؟
- تغيير الإقامة يا سيدي.. فقد تسلّمت عملًا جديدًا بإحدى الشركات أصر صاحبه أن أقوم بعمل إقامة.. وأنت؟
- مثلك تمامًا..

ومضينا نتحدّث في كافة الأمور، فعلمت منه أنه لم يشتغل خلال العشر سنوات بالمحاسبة حسب مؤهّله الموجود على الباسبور وفي وثيقة العمل.. وأنه عمل أعمالًا كثيرةً لا تَمُتُّ إلى المؤهّل بصلة.. من موظّف أمن إلى بائع شاورمة فسائق سيارة لدى شركة.. إلخ، وتنقل بين الإمارات المختلفة واستقرّ أخيرًا بإمارة "عجمان" حيث يعمل في محل لبيع الدجاج على طريقة البروست.

وبدوري حكيت له كل ما دار لي منذ قدومي من مصر.. بعد أن انتهيت لوى شفتيه وقال لي:

- العمل الحرّ أفضل مائة مرة، خصوصًا كما علمت أنك قادم بتأشيرة زيارة وليس عقدًا.. فسعادة المدير العام سيشتري ويبيع فيك، وفي النهاية سيستغنى عنك..

قلت له وأنا أنفخ مُتبرّمًا:

- ستقفلها من أوّلها..
- أنا لا أقفلها، بل أنورك قبل أن يقع المحذور.. على أية حال إذا احتجت إلى شيء فاتّصل بي..

ما كاد ينتهي من جملته حتى فوجئت به ينهض وهو يصيح:

- «شوشو».. كيف حالك؟

كانت «شوشو» آتية تحمل كوب نسكافيه.. سلَّمتْ عليه بحرارةٍ وراح يُقدِّمُها لي:

- أعرّفك يا عصام بأجدع امرأة مصريّة هنا.. «شوشو»..

هزّت «شوشو» رأسها ثم جلست وهي تقول:

- سبق وتعارفنا..

أكمل «حمدي» التعارف بتقديمي لها:

- صديقي «عصام محمود» يعمل في بنك "أم القيوين"..

صاحت:

- عند «راشد جمعان» إنه من أعز أصدقائي.. لو احتجت أي شيء أبلغني وأنا أوصيه عليك..

رحت أشكرها وأنا أنتهز الفرصة لأثني على الرجل:

- حقيقة الأستاذ «راشد جمعان» رجل خلوق وصاحب ذوق رفيع..

رنت ضحة عالية لفتت انتباه البعض وهي تقول في تهكم:

- إنه خلوق للغاية.. أتُعرِّفني به.. على أيَّة حال أنا قادمة إلى "أم القيوين" بعد أسبوع في عمل هناك..وبالتأكيد سنلتقي..

ثم انصرفتْ متعلِّلة بأن أحدًا ينتظرها، فرحت أسأل «حمدي»:

- من تكون «شوشو» هذه يا حمدي؟

ارتسمتْ على وجهِهِ ابتسامةٌ ماكرة ومضى يقول:

- لها في كل شيء.. من تجارة العملة إلى الفراش.. لكن سعرها مرتفع للغاية، لن تستطيع أنت عليه.. ومع ذلك فلديها شعور وطنيّ خالص، قد تتنازل من أجله وترضى بسعرٍ خاصٍّ لأبناء بلدها فقط..

سألته وأنا أتأمّلها بطرف عيني:

- ما حكايتها؟

ضحك «حمدي» في خبث:

- يبدو أنها دخلت مزاجك وقرَّرتْ تشجيع الصناعة المصرية.. هذه المرأة حكايتها حكاية.. كانت تنعم بحياة هادئة مستقرة في بيتهم الريفي الفقير بإحدى قرى المنصورة.. رآها أحد الخليجيين فبهرَهُ جمالُها وعرض على أبيها عشرة آلاف جنيه.. ما أن رأى الرجل النقود حتى ذهب عقله وباع ابنته.. وبعد أن أخذ الرجل متعته منها طلّقها.. عندما فكّرت في العودة إلى مصر اكتشفت أن والدها أنفق العشرة آلاف في أشهر قليلة وتزوّج ثم مات تاركًا لها الفقر والدِّيون.. وهي قد اعتادت على حياة العزِّ والبذخ بغير حساب.. فاستمرّت في الخليج ووجدت الأعمال تُفرَضُ عليها فرضًا فاستجابت لها..

ثم سَكَتَ قليلًا ليبتلع ريقه وقال:

- يا عزيزي في الغربة كل شيء قابل للبيع.. حتى الجسد.. هو عمل.. مثله مثل أي عمل آخر.. أخبرني ما أخبار المدير معك وزملائك في البنك، فكما يقولون هنا.. السوداني يزرع سوداني والمصري يقلّع مصري..

ضحكتُ وأنا أقول:

- معك حق.. إن ما يُقلقني حقًّا المدير، أكثر من الزملاء.. نظراته غير مُريحة، وتصرّفاته تدعو إلى القلق.. خاصّة وأنهم يقولون عنه إنه يصدق كل ما ينقل له..

أسرع «حمدي» يقول:

- الزملاء لا تُلقِ لهم بالًا.. الأهم المدير.. أعصر عليه ليمونة وابلعه.. هذا النوع من المديرين ينبغي عليك أن تكسر سمّه..
- أكسر سمّه بماذا؟
- باللسان.. إجعل لسانك ترياقًا لسُمّه.. رصّ له نواعم الكَلِم ومحاسن الألفاظ.. كأن تقول له مثلًا.. يا طويل العمر.. نحن نعيش من خيرك وإحسانك.. جزاك الله عنا كل خير. وهنيئًا لك يا فاعل الخير والثواب..

- هل سأشحذ؟
- بعض المديرين هنا يعتبرون الراتب الذي يمنحوك إياه هبة تستحق الشكر والعرفان.. وليس مقابل عمل تقوم به..
- أخشى لو فعلت ذلك أن يتحول الترياق في لساني إلى سمّ زعاف يقتلني..

(٧)

في الصباح التالي عندما ذهبت إلى البنك أخبرني «زهور» الساعي أن المرتّبات وصلت.. هرعتُ إلى ماكينة النقود وقلبي يخفق كالعاشق الولهان الذي ذهب للقاء حبيبة غائبة، وهو لا يدري أتصدقُ في موعدها أم ستخلفه.. لم تكن هذه النقود وسيلة للنقد، أكثر من كونها شهادة تثبيتٍ لي في العمل داخل البنك، وتعجبتُ لهذه النقود الوفيرة، فعلى كثرتها بالقياس لما كنّا نحصل عليه في مصر تتبخّر هنا في ظرف أسبوع على الأكثر.. وأوّل شيء فعلته أن سدَّدت لأخي جزءًا مما له..

شيئًا فشيئًا تَكَشَّفَتْ لي نفوس جميع العاملين في البنك.. «خيرية» تحاول جاهدة أن تدفعني إلى الزلل عن طريق أسئلتها المتلاحقة لتسجيل رأيي وانطباعي عن المدير والزملاء والعمل بصفة عامة، فكنت أهرب من ثرثرتها بإجابات دبلوماسية لا تريحها..

أما «سعيد زيادة» فكان يتربّص بي، فيتصيّد أخطائي بشهوانيّة عجيبة مُعبِّرًا عنها بابتسامة لا يحيد عنها، فيلاحقني بعينيه الثعلبيتين ومزاحه اللاذع الذي يحمل أكثر من معنى جميعها تشي بمكامن نفسه وسوء سريرته، فكنت أتحاشاه وأتجنبه..

كذلك الحال بالنسبة لـ«وداد شكري» و«فاروق السبيلي».. هذان الاثنان بالذات كان كلامهما معي قليلًا.. ولا أدري سرّ صمتهما الدائم.. هل خوفًا منّي، أم كراهية لا مبرر لها..

ذات يوم كنت أقوم بمراجعة بعض الشيكات، فإذا بالهاتف يرنّ وأسمع صوت «جوجوش» على الجانب الآخر:

- أستاذ عصام.. من فضلك تعال إلى مكتب المدير العام حالًا..

خفق قلبي.. ما الذي يريده المدير العام؟ هل هذا الأراجوز المدعو «سعيد زيادة» وشى إليه بشيءٍ عني؟ أسرعتُ إلى مكتبه ومازال عقلي يضرب أخماسًا في أسداس.. دخلتُ أوّلًا إلى مكتب السكرتيرة «جوجوش» وأنا أسألها بصوتٍ خفيض:

- ألا تعرفين ماذا يريد المدير العام؟

ضحكت «جوجوش» ضحكة عالية خشيت أن تصل إلى مسامعه في الحجرة المجاورة.. كدت أكتم أنفاسها بيدي، وأسرعتُ أقول:

- ألا تخشين أن يسمعك؟

قالت وهي مازالت تضحك:

- من هذا الذي يسمعني يا أستاذ؟ أنسيت أن سعادته سافر بالأمس إلى البحرين ولن يعود قبل ثلاثة أيام.. إنها فرصتنا لنتنفس قليلًا، وإذا غاب القطّ فليلعب الفأر كما يحلو له..

سألتها في وجوم:

- من الذي يريدني إذن؟

رنّت إليَّ وهي تحدقني بنظرة خليعة لم يداخلها ثمة حياء، ثم وقفت وراحت تقترب مني بخطوات راقصة وتقول بدلال:

- أنا التي أريدك.. ألا أستحق هذا الشرف الرفيع، أم ينبغي أن أكون مديرًا عامًّا حتى تهرع إليّ؟

جمدت في مكاني لم أحر جوابًا، بينما أضافت قائلة بصوت خفيض:

- هناك أمرٌ هام أريد أن أحادثك فيه.. ألا تذهب اليوم إلى "دُبَيّ" ونلتقي هناك؟

قبل أن أجيب دخل علينا «سعيد زيادة» راح ينقل النظر بيننا، وقد ارتسمتْ على جانبي شفتيه ابتسامة خبيثة.. أما «جوجوش» فأسرعت تجلس على مكتبها واعتلى وجهها الارتباك وأنشأت تقول وهي تمد لي يدها بورقة:

- أستاذ عصام.. أبلغني سعادة المدير العام أن أخبرك بضرورة إحضار هذا المستند من شركة الزراع بـ"دُبَيّ".. وعلى فكرة تستطيع أن تذهب إلى الجوازات لإنهاء إجراءات الإقامة..

أومأتُ.. ثم أسرعتْ إلى مكتبي وأنا أحسّ بوخز نظرات «سعيد زيادة» وهي تُسدَّد في ظهري.. لم أشأ أن أخبر «ثابت أبو السعود» بما جرى.. ليس خجلا.. بل خوفًا من أن يكون هو الآخر بوقًا للمدير العام يختفي خلف هدوئه الغامض ورزانته الغريبة..

❊❊❊

سرعان ما نسيت ما جرى واحتلّ موضوع الإقامة محور اهتمامي.. إذ تطلّب الأمر أن أنفق ألف درهم دفعة واحدة لإنهاء الإجراءات، وقد نفدت نقودي ولم يبقْ منها سوى القليل، ولا أريد أن أقترض من أخي خاصّة وأنني بدأت أشعر في عيني «سهام» زوجته بعدم ارتياحٍ لم تُخفِه الابتسامةُ الباردةُ التي كانت تستعين بها أحيانًا في وجود «كمال»..

وانتهزت فرصة وجودي في "دُبَيّ" لزيارة صديقي «حمدي رفعت».. ذهبتُ إليه في البناية التي يُقيمُ فيها.. فراح يُرحِّب بي وكأنه كان ينتظرني..

- اسمع، ستنام عندي الليلة..
- لا أستطيع.. أخي «كمال» في انتظاري، وسيغضب لو نمت خارج بيته..
- إذن، ستتناول معي العشاء وأُفرِّجُك على "دُبَيّ"..
- سبقك أخي وعرَّفني معالم "دُبَيّ" كلّها..

ضحك «حمدي» وراح يقول:

- لقد عرّفك «كمال» على المعالم الجادّة الوقورة كالمركز الثقافي، دائرة العلوم، دار الخليج.. أمّا أنا فسأجعلك تشاهد الدنيا كلَّها..

"دُبَيّ".. كم هي جميلة وجذّابة.. لؤلؤة تتألّق في السماء، درّة تغشي العيون إذا وقعت عليها.. أميرة تسكن الأحلام.

رحنا نجوب أنحاءها وأنا مُنْبَهِرٌ بكل شيء فيها.. بناياتها العالية التي تتخذ أشكالًا هندسيّة ومعماريّة رائعة.. حوانيتها الفخمة التي تجبرك على دخولها والتعرّف على السلع حتى ولو لم تشتر، أسواقها المتنوّعة بين القديم والحديث ينسكب فيها كل الأجناس وتسمع فيها كل اللغات واللهجات.. بينما كانت عينا «حمدي» تتفرس نهود الروسيّات وأجسادهن بنهْمٍ شديد.. ولا مانع من الانحشار وسطهن ليفوز بلمسة أو مسّة تساعده على التحمّل.. أمّا أنا فلم أستطع أن أنظر إلى أي منهن، فلقد سدت عليَّ «غادة» كل وسيلة للتمتع بالنَّظر إلى امرأة غيرها.. فغضضتُ بصري وأسرعتُ خارج السوق.. وأنا أدرك أن الحب الحقيقي كالعبادة يفرض على أصحابه ترك الرذائل والبعد عن الدنايا.. راح «حمدي» يلحق بي وهو يصيح:

- لو كنتُ أعلمُ أن مزاجَك فاسدٌ هكذا ما كنت صاحبتك.. تمتّع أيها الأبله بالجمال.. وفزْ بنظرةٍ لك لا عليك..
- إن لي عهدًا قطعته على نفسي ألا أفعل أي خطيئة حتى ولو كانت صغيرة لكي يوفقني الله في سفري..

ضَحِك في سخرية وراح ينظر لي كمن ينظرُ إلى مُخْتَل، ثم صاح كأنه توصّل إلى الحلّ الذي يطمئن إليه:

- لا.. الأمر ليس هكذا.. أنت في ورطة.. نفدت نقودك فنفدت معها كل الرغبات.. أليس كذلك..

هززت رأسي مؤيّدًا:

- صدق حدسك.. مطلوب منّي ألف درهم لإنهاء إجراءات الإقامة..

صاح:

- ولِمَ الحيرة وأخوك «كمال» موجود.. اقترض منه..
- لقد اقترضت منه أكثر مما ينبغي ولم يعد لدي القدرة على الاقتراض منه ثانية..

- يبدو أنّك حنبليّ أكثر من اللازم.. على أيّة حال.. أنا أستطيع أن أقرضك ولكن ليس ألفًا بل مائة.. وتردّها لي فور استلامك لراتبك.. فالحياة هنا يا صاحبي تختلف كثيرًا عن مصر.. وحتى تستطيع العيش هنا نصيحتي لك لا تُقرِض ولا تَقْتَرِض..

(٨)

في اليوم التالي عندما عدت إلى "أم القيوين" علمتُ أن المدير العام عاد من البحرين، وفوجئتُ بمكتب «جوجوش» مغلقًا وقد وضعت عليه لافتة تقول: "ممنوع دخول مكتب «جوجوش» بأمر المدير العام"

وشعرتُ بشيءٍ ساخنٍ يصعد إلى رأسي فيصيبني بالغثيان، هذه بالتأكيد رسالة تحذير موجّهة لي رأسًا.. مُهرِّج الملك اللعين «سعيد زيادة» هو لا ريب السبب في هذا.. نقل للمدير العام المقابلة التي كانت بيني وبين «جوجوش» ليبدو في نظره المخلص الأمين المحافظ على غيبته، وعينه الساهرة على مصالحه.

ولم تكفّ «جوجوش» عن ملاحقتي، فحينما عدتُ إلى البيت وجدتُ في حقيبتي رسالة منها.. كان فحواها يدور حول مراهقة راح الحب يشعل قلبها فألهب جفونها وقضّ مضجعها، وأنه لا حيلة غير

اللقاء.. بمرور الوقت تحوّلت الرسائل إلى مكالمات هاتفيّة على المنزل تشكو فيها من سهاد الهوى ومن عذاب الكرى.

كان كل شيء يحيط بي يدفع إلى التسليم والامتثال لرغبات «جوجوش».. المسكن الفسيح البارد كالصحراء المقفرة.. الحرمان الذي يصحبني فيه ليل نهار ويزداد يومًا بعد يوم.. الوحدة القاتلة التي تُلقي بظلالها عليَّ منذ أدخلُ من الباب حتى يحين موعد ذهابي إلى العمل.. الحيوان الرابض بداخلي يود أن أتخلى عن إنسانيتي ليتحرر هو من قيدها وينسَلّ من عنانها.. والعفريت.. العفريت الذي يتسلّمني كل مساء ولا يدعني إلّا في الصَّباح.

كلما هممت أن أستجيب أجد سياجًا من حديد تضربُ حولي، لتحول بيني وبين الرذيلة فأرتدّ خائبًا وأنا حسير، وعندما يعصف بي الحرمان وتكويني الرغبة، أهرع إلى "دُبَيّ" لألوذ بأخي «كمال»، ضاربًا بتحكّمات زوجته ومَكْرِها عُرْضَ الحائط.. وكنت ألاحظ أن أخي يحيطني بدوّامةٍ من الأسئلة المباغتة التي لا أجد لها تفسيرًا:

عصام.. ماذا بك؟ هل حدث من «سهام» شيء أغضبك؟ إنني ألاحظ أنك لا تتكلم معها كثيرًا..

وأيقنت أن «سهام» عادت سيرتها الأولى، وأن أتون حقدها الدفين بدأ يصعد إلى عينيها، فلم تكن هذه الأسئلة إلا ستارًا يحمل بين طيّاته نفسًا أمّارة بالسوء تحاول جاهدة أن توقع بيني وبين أخي.. لم أشأ أن أخبر «كمال» بتجاهل «سهام» لي.. خاصّة في عدم وجوده، وعدم الردِّ عليَّ إذا بادرتها بالتحيّة، وإغلاق سمّاعة الهاتف في وجهي أكثر من مرّة إذا كنت متحدثًا من الخارج.. في البداية كنت أظن أن هذه التصرّفات ردًّا على خلافات بينها وبين «كمال» تحاول أن تخلّصها مني، لكنني لم أعبأ بها، فلديَّ بيتٌ في "أم القيوين" أستطيع الإقامة فيه كما يحلو لي وأستغني نهائيًّا عن الذهاب إلى بيت أخي.. وعندما جاء يوم الخميس لم أذهب كعادتي إلى "دُبَيّ" مُضحّيًا بمكالمة الجمعة المقدَّسة التي أنتظرها طوال الأسبوع..

حتى هذا المسلك كان مصدر هجومٍ من سهام، فقد جاء «كمال» مساء الجمعة مستفسرًا عن سبب عدم حضوري إلى "دُبَيّ" وأخبرني أن «غادة» اتَّصلتْ وهي قلقة للغاية.. نزلتُ مع «كمال» لنتمشّى سويًّا في أنحاء "أم القيوين" وبينما نحن سائرين بادرني قائلًا:

- قل لي بصراحة يا عصام لماذا لم تأتِ هذه المرّة..

- أجبته:
- لا شيء البتة.. أحاول فقط أن أُخفِّفَ عنك حملي الثقيل وأوفّر عليك توصيلة السبت القاسية، ومع ذلك فعلتها وجئت..

صاح «كمال» بانفعال:

- أنت بهذا تضعني في مشاكل مع «سهام».. فهي تظن أنك تتعمّد عدم زيارتنا لكي تساعد على اتساع شقة الخلاف بيني وبينها..

سكتُ قليلًا ثم قلتُ:

- يا أخي «سهام» ليست ضالتي ولم أضعها يومًا في حسباني، كل اهتمامي منصبٌ على العمل حاذرًا من النفوس البغيضة التي تحيط بي من كل جانب في "أم القيوين" تريد النيل منّي.. مُفكِّرًا في أسرتي الصغيرة التي تعيش على أملٍ في القاهرة، وفي الهدف الذي جئت من أجله إلى هنا..

تركني أخي وقفل عائدًا إلى "دُبَيّ".. وبقيت وحدي داخل البيت المسكون أترقّب حضورهم الليلي المعتاد في شكل خيالات ترتسم في الظلام وعلى الحائط والسقف.. وأصوات تهمس وتئنّ وتئزّ وترفّ في

تناغم وفوضى معًا.. أسترجع تحذيرات «سعيد زيادة» وهو يقسم بأغلظ الأيمان بأن قتيلًا قُتِل داخل هذه الشَّقّة منذ عام، وعفريته يظهر كل ليلة.. وتؤكِّد «خيرية» كلامه بقولها: إن الشَّقّة مغلقة ولم يستطع أحد الاقتراب منها حتى جئت أنت وسكنتها..

أنتفضُ فجأةً على صوت ارتطامٍ بالخارج وأزيزٍ مُبهمٍ يتردد ثم يتلاشى تدريجيًّا.. أزيح الغطاء على وجهي في رعبٍ حتى لا أراهم ولا يروني.. أغمض عيني وترهف أذني لأقلِّ صوت.. يتحوّل الصمتُ المخيّم حولي إلى ضجّة مهموسة.. يدفعني فضولي لمعرفة ما يدور حولي وكأن يدًا ثقيلة ستهوي على جسدي.. أزيح الغطاء قليلًا ليتمثّل لي في الظلام وجهٌ يضحك في بلاهة.. كادت تند مني صيحة.. تركت حجرة نومي وهرعت إلى حجرة الأبناء..

تتجمد قدماي قليلًا أمامها.. أشعر نحوها بالحنين والأُلفة وكأنّ فيها «هدى» و«وليد»، خاصة أنها قريبة من الشُّرفة المطلّة على الشارع الرئيسي.. ويتصاعد إليها أصوات العربات وأحاديث المارة فأشعر بالونس والاطمئنان.. ألقي بجسدي على سرير «هدى» أتمرغ فيه تأتيني ضحكاتها المرحة وصوتها العذب وهي تناديني:

- بابا.. تعال نام جنبي..

أنظر إلى السرير المقابل فيخيل لي أن «وليد» نائم فيه وهو يبكي ويصيح، أهرع إليه وأحمل وسادته وأنا أغنّي بصوت مسموع إحدى أغنيّات الأطفال التي ينام عليها كي أطمئن نفسي:

- ماما.. زمانها جايّه، جايّه.. بعد شويّه، جايبه لعب وحاجات.

فجأة تملأ أذني أصوات صدئة مخيفة:

- واك واك..

وأسمع صراخًا عاليًا وأصوات أقدام كثيرة تجري في المكان، فتهزّ البيت.. أسرع إلى الشُّرفة وأنظر منها إلى بعيد فيبدو أمامي الخليج غارقًا في الظلمة والوحشة وصوت الأمواج تأتيني كأنها تراتيل مُبهَمَة لا تستطيع أن تتبين منها شيئًا.. أطمئن قليلًا عندما سمعت صوت عم «أردشير» بالخارج وهو يحدّث أحد الهنود ويخبره أنه ذاهب في الغد إلى "الفجيرة" ليقضي بعض الوقت عند أقاربه هناك.. فأعود إلى غرفة نومي وأغطّي وجهي بالغطاء حتى يغلبني النُّعاس..

***

ما أن وصلت إلى البنك، حتى أخبرني «ثابت أبو السعود» بأن المدير يريدني في مكتبه.. سألته:

- ألا تعرف لماذا يريدني؟

هزّ رأسه دون أن ينطق ببنتِ شَفَة.. وأدركتُ على الفور أن في الأمر كارثةً وأن المدعو «سعيد زيادة» قد قام بواجبه على أحسن وجه.. أسرعت إلى مكتب المدير وزادت دهشتي عندما لم أجد «جوجوش» على مكتبها.. طرقت الباب فصاح من الداخل بصوته الحاد المتغطرس:

- أدخل..

دخلت فوجدت «فاروق السبيلي» واقفًا والمدير يعنِّفه بعصبيّة وانفعال، وقد اختار أحطّ الألفاظ والشتائم لنعته بها:

- أنت محاسب مهمل بليد.. عارٌ علينا أن تكون معنا في هذا المكان..

راح «فاروق السبيلي» يدافع عن نفسه باحثًا عن أيّة مُبرِّراتٍ تدحض اتهامات المدير له:

- ما حكايتها؟ أرجو المعذرة يا سيدي.. فهذا خطأ بسيط وغير مقصود وسأتمكن من إصلاحه بعون الله..

تثور ثائرة المدير وينفجر صابًّا عليه المزيد من اللعنات:

- هذا الخطأ الذي تقول عنه بسيطا أيها الأبله قد يتسبب في خسائر تقدر بالآلاف.. عد إلى مكتبك وانتظر التحقيق الذي سيجرى معك..

أسرع «فاروق السبيلي» بمغادرة مكتب المدير والدموع في عينيه، وقد احمرّ وجهه من فرط الانفعال.. فأشار لي المدير بالجلوس وقد أعددت نفسي للمواجهة، فأنا لن أحتمّل سبًّا ولا شتمًا وحمدت الله أن معي تذكرة عودة يمكن أن تنقلني إلى مصر في ثلاث ساعات..

فوجئت بالمدير يحدثني باحترام شديد سائلًا إياي:

- كيف حالك يا أستاذ عصام؟
- الحمد لله يا سعادة المدير..
- هل أنهيت إجراءات الإقامة؟
- ليس بعد. لكنني سوف أنتهي منها خلال هذا الأسبوع..

ثم مدّ يده لي بملف يحوي عددًا من الأوراق وراح يقول:

- هذه المستندات خاصة بمناقصة لدى شركة الزراع بـ"دُبَيّ" أريد منك الذهاب ولا تأتي إلا بها موقّع عليها ومختومة بخاتم الشركة..
- أمرك يا سعادة المدير..

تناولتُ منه الملف، وقبل أن أنصرف من أمامه فوجئت به يحدثني قائلًا:

- أخبرني «ثابت أبو السعود» أن زوجتك مترجمة..

أومأت:

- هذا صحيح.. بالإضافة إلى شهادتها الجامعية في المحاسبة..
- عظيم.. أنا بحاجة إلى مترجمة بأسرع ما يمكن.. أرسل لها لكي تأتي وإذا واجهتك أية عقبات أخبرني بها وأنا أذللها لك على الفور..

شكرته ومشيت وأنا أكاد أطير من فرط السعادة.. سأعمل أنا و«غادة» في البنك.. خبر كهذا لابد من إبلاغ «غادة» به..

ارتديت ملابسي على عجل كي أتجه إلى "دُبَيّ".. قبل أن أتهيأ لمغادرة البيت سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، عندما فتحت اتسعت

عيناي من فرط الذهول على الواقف بالباب.. كانت «جوجوش».. وقفتُ مدهوشًا غير مُصدِّق.. قطعتْ دهشتي قائلةً بدلال:

- أعلم أن المصريين كرماء.. ألا تدعوني إلى الدخول؟

تمالكتُ وأسرعت أقول وأنا أبلع ريقي:

- معذرة يا جوجوش.. أنا ذاهب توًّا إلى "دُبَيّ".. والبيت لا يليق باستقبالك..

تقدمت قائلة:

- سأتنازل من أجل خاطرك..

وضعتُ ذراعي حائلًا وأنا أقول:

- الشَّقّة غير مُعدّة لاستقبال أحد..

نظرتْ لي نظرة ذات مغزى، ثم قالت وهي تدفع يدي وتدخل متأمّلة الشَّقّة:

- مش بطّالة..
- لحقت بها وأنا أقول راجيًا:
- «جوجوش».. أتوسّل إليكِ.. اتركي البيت فورًا.. لو أحد رآك هنا ستكون كارثة..

ردتْ في لا مبالاة:

- مالك خائف هكذا.. كل شيء على ما يرام.. عم «أردشير» ذهب عند أقاربه في "الفجيرة" ولن يعود إلا غدًا..

قالت هذا، ثم اقتربت مني وطوقتني بذراعيها وأطبقت بشفتيها على شفتي في قبلة محمومة.. كدت أستجيب، وقد أتتني أنفاسها المتوهّجة المتأججة بنيران الشهوة لتندفع الدماء ساخنة في عروقي، فيحتويني خدر كاد يطويني، لولا هذا السياج الذي راح يفصل بيني وبينها مكافحًا مقوِّضًا رغباتنا معًا.. ولا أدري لماذا شممت في تلك اللحظة الرائحة البغيضة التي تتغلغل داخلي كلما مررت من طريق المقبرة.. دفعتها بيدي بقوة وأنا أصيح:

- «جوجوش».. أخرجي.. أخرجي فورًا..

مازالتْ تتشبثُ بي، تحاول أن تستعيد انتشاءها:

- لا أستطيع..

لم أدر بيدي إلا وهي تصفعها على وجهها وأنا أصرخ:

- قلت لك أخرجي.. اتركي هذا المكان فورًا..

نظرتْ لي بغيظ، وقد تجمّعت الدموع في مقلتيها ثم صاحت:

- يالك من أحمق.. أنت لا تزيد في نظري عن «زهور» الساعي و«ميسرة» السائق، بل أنت أحقرهم جميعًا.. لا تنس أن رزقك بيدي، وأستطيع أن أقطع جذرك من هذا البلد إلى الأبد.

ثم خرجت صافقة الباب بقوّة خلفها، أمّا أنا فانهرتُ فوق الفراش في إعياء..

كنت أنطلق إلى "دُبَيّ"، ومازالت زيارة «جوجوش» ماثلة في ذهني طول الطريق.. أول شيء فعلته قبل الذهاب إلى منزل «كمال» أن توجّهت إلى شركة الزراع وقدّمت لهم المستندات الخاصة بالمناقصة وبعد أن حصلت على التوقيعات والأختام المطلوبة أسرعت إلى منزل «كمال»..

فتحتْ لي "سهام" بوجه مُكفَهِرّ وهي تزوم، ثم دخلت المطبخ تنفخ في ضيق، فأدركتُ أن «كمال» مازال في الجريدة وسمعت من الداخل صوتًا يصيح مُرحِّبًا:

- أهلًا يا عصام.. تفضل..

كان «فريد» شقيق «سهام» أتى من مصر، فقد أخبرني أخي أن «فريد» سيصل خلال أيام. وأنه يسعى إلى إيجاد عملٍ له، وأيقنتُ على الفور أن مجيء «فريد» هو ثمن مجيئي إلى الإمارات، لكنني سعدت به

أيما سعادة، فقد شعرت أنه يحمل معه عبق بلدنا الجميل الذي كنا نرتع فوق أرضه وتحت شمسه بحرية دون أن نشعر بدفئها.. وبعد عبارات الترحيب قال «فريد»:

- لقد أحضرت لكَ معي هديةً قيِّمةً من مصر..

أسرعت أقول:

- إليَّ بها.. كم أنا مشتاق إلى هدايا مصر..

أخرج حقيبة صغيرة قدمها لي وهو يقول:

- هذه من المدام..

خطفتها منه وأنا أسأله في إلحاح:

- وكيف حالهم؟ و«هدى» ابنتي.. هل رأيتها؟ و«وليد» هل كبر.. هل أخذ التطعيمات الخاصة به..

أومأ قائلًا:

- اطمئن.. إنهم جميعًا بخير..

كنت قد فتحت الحقيبة لأجد بداخلها جهاز تسجيل صغيرًا بداخله "شريط كاسيت".. أدركت على الفور أنها رسالة صوتيّة، وغمرتني سعادة بالغة، إذ إنني سأسمع الآن صوت زوجتي وابنتي

وأمي وأختي.. هذا بخلاف مجموعة من الرسائل.. ولم تنس غادة أن تضع في الحقيبة صينية الجلّاش باللحم التي أُحبُّها وبعض البسكويت، بينما علّق «فريد» قائلًا وهو يضحك:

- أكدت لها أنه لا يوجد في الإمارات أكثر من الطعام ولكنها أصرّت..

وسمعتُ من الداخل مصمصة شَفَتَي «سهام» في اعتراض مكتوم.. أسرعت إلى حجرة «كريم»، فاختليت بنفسي ورحت أستمع إلى صوت زوجتي:

- حبيبي عصام.. وحشتنا كثيرًا.. مر خمسون يومًا منذ فارقتنا، كل ما أستطيع أن أقوله لك.. تحمّل.. تحمّل من أجلنا.

رحت أهمس.. آه لو تعرفين المفاجأة التي أحملها لك.. بعد قليل حضر «كمال» وأخذ يرحّب بـ«فريد» ثم أخذ يحدّثه عن الوعود التي أخذها من أصحاب المحال لإيجاد عمل له فيها.. فسمعنا من الداخل صوت «سهام» تقول باحتجاج:

- ستجعل أخي يعمل في محل وليس بنكًا..

لم يُعلّق «كمال».. وبعد الغداء حان موعد الاتِّصال الأسبوعيّ بالقاهرة.. رحت أدير قرص الهاتف وقلبي يرقص طربًا.. جاءت «سهام» وهي تطلق تنهيدة ثم قالت مُحدِّثة «كمال»:

- اليوم جاءت فاتورة التليفون بقيمة أكبر من المعتاد.. ستذهل من الرقم الذي ستجده فيها..

زغر لها «كمال» دون أن يعقّب، بينما راحت تنهر ابنها «كريم» بلهجة موحية:

- إجلس في مكانٍ أيها الأبله.. منذ أتيتنا والفقر يلاحقنا.. نهرها «كمال» بعصبيّة:

- ما هذا الذي تقولينه؟

ردّتْ بلا مبالاة:

- إنني أحدِّث الولد.. لو رأيت ما يفعله طول النهار من عبث بالأشياء لعذرتني..

لم أُبدِ أنني لاحظت شيئًا مما يحدث لكنني عزمت الأمر أن تكون هذه هي آخر مكالمة لي من هذا البيت.. وسمعت صوت «غادة» وهي تصيح بلهاث الشوق:

- «عصام».. وحشتني. وحشتنا جميعًا..

لم أكن أتمنى أن أبوح لها بالسر أمام «سهام». لكنني صحتُ في فرحٍ لم أستطع كتمانه:

- لقد وافق المدير على تعيينك بالبنك يا غادة.. ابدأي في إجراءات الإجازة وتوثيق الشهادات وعمل جوازات السفر حتى أرسل لك عقد العمل..

صرخت «غادة» في سعادة غامرة.. ورحت أتأمّل وجهها وقد تألّق فرحة وحبورًا.. في نفس اللحظة التي وقعت عيني على وجه «سهام» لأرى شحوبًا واصفرارًا كأن الدماء قد فرّت منه، وعينيها غارتا في محجريها.. ولم تنبس بكلمة..

بعد أن انتهيت راح «كمال» يعانقني مُهنِّئًا بتعيين «غادة» في البنك، واقترح أن نخرج جميعًا لنحتفل بالمناسبتين معًا؛ تعيين «غادة» ومجيء «فريد»..

اتخذنا طريق الكورنيش ونحن جميعًا نغني ونضحك.. إلّا «سهام».. فقد جلستْ قاطبة الجبين غائرة العينين لا تلوي على شيء.. ولم تنطق بكلمة واحدة.. فصاح «كمال»:

- ما رأيكم لو ذهبنا إلى سوق "دُبَيّ"؟

سأله «فريد»:

- ولِمَ سوق "دُبَيّ" بالذَّات؟

أجابه «كمال» مازحًا:

- هناك بائعة صينيّة دائمًا تذكّرني بـ«سهام»..

ضحك «فريد» أما أنا فشردت.. كنت أفكّر فيما يجب أن أفعله قبل مجيء «غادة».. هناك بعض الأجهزة الضروريّة كالبوتاجاز والثلاجة والغسّالة.. وكل هذا يحتاج إلى مبالغ كثيرة لن يوفيها الراتب.. خاصة أنه ينبغي سداد مبلغ لأخي.. وبينما أنا كذلك فوجئت بـ«سهام» تستدير وتحدثني بوقاحة:

- لماذا لم تضحك على هذه أيضًا يا عصام.. ألستُ مادة للسخرية والتّهكُّم.. تضحك على كل صغيرة وكبيرة تخصّني..؟!

قلتُ لها:

- معذرة كنت سارحًا فلم أسمع ما قيل..

وسكتَ كلُ من بالعربة..حتى أوقف «كمال» سيارته على الكورنيش.. فنزلتُ من العربة أنا و«فريد» ومعنا «كريم» ابن أخي

مشينا قليلًا على الكورنيش. لنفاجأ بصراخٍ آتٍ من داخل العربة و«سهام» تفتح باب السيارة وتصيح بصوتٍ عالٍ جمع المارة حولهما:

- إذا لم تسكت الآن سألمّ عليك الدنيا وأعمل لك فضيحة..

أسرعنا نحوهما ونحن نتساءل:

- ماذا حدث؟

راح «كمال» يوجّه حديثه إلى «فريد» بانفعال:

- أختك لا تلزمني.. خذها إلى البيت في تاكسي حتى أجد معها حلًّا..

أخذ «فريد» «سهام» واستقلّا تاكسي انطلقا به، بينما صحت مُحَدِّثًا «كمال»:

- ما الذي حدث لكل هذا؟ أنت تضعني في موقف حرج..

صاح «كمال» بهدوء:

- الموضوع لا يخصّك إطلاقًا يا عصام..

وصلنا إلى بيت أخي كان كل شيء هادئًا.. دخلت غرفتي لكي أنام، بعد قليل سمعتُ «سهام» تُحَدِّث «فريد»:

- لقد جاء إلى هنا لتطليقي.. لم ينجحوا للتفريق بيننا في مصر ففعلوها في الإمارات..

وسمعت «فريد» يحدثها بصوت خفيض:

- أصمتي.. «عصام» لم ينم بعد..

صاحت:

- لا يهمّني..

في الصباح كنت أتّخذ طريقي إلى "أم القيوين" وقد عقدت العزم على عدم العودة إلى "دُبَيّ" مرّة أخرى..

(١٠)

عندما عدت إلى بيتي في "أم القيوين" فتحت الحقيبة التي أرسلتها «غادة» ورُحت أستمع إلى صوتها للمرّة العاشرة أو العشرين، ومددت يدي لأقضم قطعة من الجلّاش باللحم التي صنعته بيديها، فكان أشهى طعام دخل جوفي منذ شهرين.. هي الفترة التي عشتها هنا..

وسعدت كثيرًا بشعرةٍ سقطت سهوًا من رأس زوجتي في صينية الجلّاش، ودخلتْ البلاد بدون جواز سفر ولا تأشيرة دخول ولا تصريح إقامة.. وحمدت الله أن الحدود السياسية لا يمكن أن تفصل بيننا، وأن أجزاءً من أجسادنا تستطيع أن تنتقل بحرّيّة بين الأقطار..

قرَّرتُ في نفسي أن أستعين بهذا الطعام ليدخل ضمن خطة الكفاف التي فرضتها على نفسي، فقد نفدت كل النقود التي معي ولم يبق معي سوى دراهم معدودة تكفي ليومين أو ثلاثة، وحمدت الله أن

الشهر لم يبق فيه سوى يومين وعليَّ أن أدَّخِر الدراهم المتبقِّية لشراء المياه..

***

استيقظت في اليوم التالي على نفير سيارة البنك، وسمعت «ميسرة» السائق وهو يدوّي بصوته فغطى بندائه المزعج على نفير السيارة:

- يا أستاذ عصام.. قم.. سنتأخر على البنك..

أسرعت بارتداء ملابسي، وفي دقائق معدودة كنت أجلس بجانبه في السيارة بينما راح يرطن بلهجته السودانية القحة، فلم أستطع أن أفهم منه غير كلمات قلائل، عرفت منها أنه يسدي إليَّ النُّصحَ للمحافظة على المواعيد، وأن هناك أوامرَ مُشدَّدة من جناب المدير العام بترك أي موظف لا ينتظر السيارة على قارعة الطريق..

أومأتُ دون أن أرد. فأنا لست في حاجة إلى مزيد من اللوم والعتاب حتى من سائق البنك.. لكن «ميسرة» لم يصمتْ بل مضى يقصّ علي متاعب مهنته ومعاملة المدير العام السيئة، ثم صاح بعصبيته المعهودة:

- ياله من رجل مجنون.. إنه لا يفقه شيئًا على الإطلاق، وعلى رأي مثلكم في مصر.. "ثور الله في برسيمه"..

وتعجّبت لجرأة السائق.. كيف واتته الشجاعة حتى يتحدث عن المدير العام بهذه الطريقة.. ألا يخشى أن أنقل ما قاله للمدير..

ودقّ قلبي.. فقد تكون هذه حيلة من المدير لكي يعرف رأيي فيه، وأن حديث «ميسرة» معي هو الطُّعم لاستدراجي إلى مشاركته في الحديث.. فرحت أسأله مُغيِّرًا مجرى الحديث:

- لكنك جئت اليوم مُبكِّرًا عن المعتاد يا ميسرة.. أشكّ أن يكون أحد قد وصل إلى البنك قبلنا..

انفجر يرطن بطريقته الانفعالية، حتى أنني لم أدر إن كان غاضبًا أم يتحدث بطبيعته:

- لست مسؤولًا عمن يأتي أو من لا يأتي، كل شيخ له طريقته.. الأستاذ «سعيد زيادة» -غمّه الله- يأتي ماشيًا على قدميه بحُجّة التخلّص من كرشه الذي يملأه بخيرات الله، أما المغفور له «ثابت أبو السعود» فيأتي بسيارته المازدا أدعو الله أن تنقلب به في الطريق حتى نستريح من شرّه..

قاطعته:

- يا شيخ حرام عليك..
- حرمت عيشتها.. فلا يوجد أخبث من هذا الثنائي «ثابت» و«سعيد».

عُدتُ أهرب إلى حديثٍ آخر:

- يبدو أنك سعيد في عملك يا ميسرة.. فما أسهل توصيل الموظفين وإحضارهم..

وكأنني سببته بهذا القول، فانفجر يزأر بصوت عالٍ:

- أنتم هكذا أيها الموظّفون.. تظنون أن عملكم هو أشقّ الأعمال وأصعبها، وما دون ذلك فهيّن وبسيط.. حقيقة من لا يعرف فليقل عدسًا.. إن هذه السيارة الكئيبة تعمل ليل نهار وكأنها طاحونة.. فبعد توصيل الموظفين تتحول إلى مكوك بين الإمارات المختلفة من تحصيل شيكات، وتوصيل مستندات، وختم أوراق من الجوازات، لتوصيل المرفودين إلى المطار..

سألته بحرص محاولًا ألا أترك بسؤالي أثرًا في نفسه:

- ألهذه الدرجة الرفد عندكم بسهولة؟

بخبث التقط السؤال، فضحك حتى بدت أسنانه البيضاء:

- حسب الظروف وحسب مزاج سعادة المدير العام و...سكت قليلًا، ثم غمز بعينيه الصفراوين وهو يكمل:
- وسكرتيرته الخاصة.. «جوجوش»..

وانفجر مقهقها.. أمّا أنا فخفق قلبي بشدة.. بالتأكيد هذا السائق اللئيم يرمي إلى شيءٍ ما.. ترى هل رأى «جوجوش» وهي آتية إلى المنزل؟ فالإمارة صغيرة وأي شيء يحدث فيها يُعْلنُ على الملأ..

عدت أغيّر مجرى الحديث وكأننا في مطاردة بين الأحراش:

- الحمد لله.. اليوم أول الشهر الجديد وسنقبض مرتباتنا..

صرخ في وجهي بطريقته الهمجية:

- أمازلت نائمًا يا سيدي.. استيقظ.. ألم تعرف أن المرتبات تأجّلت أربعة أيام أخرى..

سقط قلبي بين قدمي.. ضاع آخر أمل لي.. تحسست جيبي فلم أجد غير خمسة دراهم هي المتبقية من شهر مضى.. واسودّت الدنيا في وجهي، ولم أدر ماذا أفعل خاصة وقد حرمت نفسي على بيت أخي بسبب زوجته الحرباء.. فكرت في الاقتراض من «ثابت أبو السعود»،

وأعددت نفسي لتلك التجربة غير المسبوقة بالنسبة لي.. لا حل غير هذا وإلا فالموت جوعًا وظمأ..

ذهبت إلى مكتبه وعندما شرعت في سؤاله، تجمّدت الكلمات فوق شفتي ولم أجد ما أقوله.. أمّا هو ما أن رآني حتى صاح:

- أهلًا عصام.. أين أنت.. لقد سأل عنك المدير العام أكثر من مرة..

صحت بأنفاس متهدجة:

- المدير العام.. لماذا؟
- أين المستندات التي كلّفك بإحضارها من شركة الزراع؟
- المستندات.. نعم.. إنها في درج مكتبي..

ابتسم «ثابت» ابتسامة معاتبة وهو يقول:

- كان الأفضل لو سلمت المستندات فور مجيئك.. هيا أسرع بإحضارها..

أسرعت إلى مكتبي.. عندما اقتربت وجدت شيئا مُريبًا.. المفتاح في درج المكتب والدرج مفتوح.. أحسست بشيء ساخن يصعد إلى رأسي، وقلبي يخفق بشدة.. مددت يدي إلى الدرج.. أخرجت كل

الأوراق.. لكن أين المستندات؟ لقد اختفت.. يد آثمة امتدت داخل الدرج وأخذت المستندات.. وأحسست أنه سيغمى عليّ وأن الأشياء تتداعى أمامي.. تلفّتُ حولي فشعرت أن العيون تترصدني في شماتة وسخرية.. شخص من بين هؤلاء سوّلت له نفسه سرقة المستندات لإنهاء تعاقدي.. من يا ترى.. من يكون؟..

فجأة وجدت «ثابت أبو السعود» فوق رأسي وعيناه ترمقانني كأنها تسألني، فرحت أصيح في شبه استغاثة:

- المستندات سرقت..
- ظل «ثابت» واقفًا في إطراق، ثم رفع عينين جامدتين وراح يقول:
- يؤسفني أن أبلغك قرار المدير العام بإنهاء تعاقدك وترحيلك إلى مصر..

وكأن جبلًا من الأحلام تهاوى فوق رأسي.. في نفس اللحظة وجدت أمامي وجوهًا كثيرة تتوالى أمام عيني عرفت من بينها وجه ابنتي «هدى» وابتسامة «وليد»، وسمعت صوت «غادة» وهي تحثّني

على التجلّد والصبر وتخبرني أنها أنهت كل الإجراءات وفي انتظار تذاكر السفر.. حاولت التماسك وصحت بصوت منهك:

- كل هذا من أجل مستندات، يمكنني الحصول على صورة منها من شركة الزراع..

سكت «ثابت» قليلًا، ثم راح يدور حولي وهو يقول:

- للأسف قرار المدير العام ليس بسبب المستندات فحسب.. هناك سبب آخر..

أسرعت أقول في ثورة:

- ما هو؟ إنني أقوم بعملي على أكمل وجه.. لم أتأخّر يومًا.. لم أتوان ساعة واحدة.. وتستطيع أنت أن تشهد على ذلك..

أطرق ثانية ثم صاح بلهجة المحقق:

- قل لي بصراحة يا عصام.. ألم تشتكِ من المدير العام لأي شخص هنا في الإمارات..

صحت مُنفعِلًا:

- أنا؟

راح يكمل عريضة اتهامي بنفس أسلوبه الهادئ الرزين:

- ونعته بالغباء والتخلّف، وقلت عنه صراحة إنه.. إنه.. حمار..

قطبت ما بين حاجبي غير مصدق:

- هذه بالتأكيد وشاية.. دسيسة.. من حقي أن أدافع عن نفسي.. إنني أعيش هنا وحيدًا لا أعرف أنسانًا..

مازال «ثابت أبو السعود» مُستمِرًّا في إلقاء عريضة إتهامي:

- وأفشيتَ أسرارًا خاصة بالبنك لأحد البنوك المنافسة ولشركة الزراع نفسها.. وأضعت على البنك المناقصة مقابل تلقيك رشاوى..

صرخت في انفعال:

- هذه بالتأكيد حيلة خبيثة لتبرير إقالتي عن العمل..

أمسك بيدي محاولًا تهدئتي:

- اهدأ يا صديقي.. إنني لا أحقق معك.. إنني أبلغك فقط ما قيل لي.. ثم إن سعادة المدير العام ليس بحاجة إلى حيلة ليقيلك بها، لو أراد ذلك لفعل دون أن يُلام من أحد، ودون إبداء أي أسباب..

سكتُّ قليلًا، ثم صحت:

- إذن شخص عديم الضمير دبر هذه المكيدة لإبعادي عن المكان..

واجهني بعينيه الغامضتين اللتين تخفيان أكثر مما تظهره، ثم قال:

- لو تشكّ في شخص بالتحديد أخبرني به..

نظرت حولي ببطء وأنا أتأمّل الوجوه المحيطة بي، حتى استقرت عيناي على وجه «ثابت أبو السعود»، فصحت بلا وعي:

- نعم.. أشك فيك أنت.. فيكم جميعًا.. لا أستثني أحدًا منكم.. وأرجو أن تبلغ سعادة المدير العام أنه فعلًا حمار.. مع الاعتذار للحمير.

(١١)

أربعة أيام مضت وأنا قابعٌ وحيدًا في شقّتي الخاوية، وقد نفد منذ يومين كل شيء.. الدراهم الخمسة وزجاجات المياه والجلاش والكعك بالعجوة التي أرسلتها زوجتي.. حتى صبري نفد هو الآخر، وحمدت الله أن منحنا الهواء لنتنفسه وإلا كنت مت مُختنِقًا من أول يوم..

وتذكرتُ عندما كنت ناقمًا على الحياة في شقّتي الضيّقة المتواضعة، لكنني لم أشعر فيها يومًا بجوعٍ أو بظمأ أو بخوف، مثلما شعرت به هنا، وبدأتُ أشعر بضعفٍ وهزال واضطراب في قلبي.. كأن النهاية تزحف إلى جسدي شيئًا فشيئًا..

لم أكن أشعر بجوع إلى الطعام أو بظمأ إلى الماء أو بخوف من الوحدة، وإنما حقيقة كنت أشعر بجوع إلى الحب وظمأ إلى النقاء وخوفٍ من المجهول.. وتعجّبت.. كيف لي أن أجوع وأظمأ فوق أرض هذا البلد الثري؟

رحتُ أتأمل الشَّقّة الواسعة القابعة أمام مياه الخليج، فشعرت بضيقها كأنها سجن، واشتقتُ إلى اتساع بيتنا الضّيّق.. واكتشفتُ أن الضيق والاتساع ليس بتقارب الجدران من بعضها أو تباعدها، وإنما بعيون من يعيشون حولنا.. فعندما كنت أنظر في عيْنَي زوجتي أو ابنتي أو الأصدقاء كنت أشعر باتساعٍ رحب..

عدتُ أنكمشُ في فراشي الصغير داخل السِّجن الذي فرضَتْه علَيَّ نفسي منذ تركت العمل، فأحسستُ أنّي أعيشُ في بطن حوتٍ قابعٍ في أعماق المحيط.. تغشى عيني ظلمات ثلاث.. ظلمة الغربة الموحشة التي راحتْ تضغط عليَّ بكل قوّتها، وظلمة النفوس المريضة المحيطة بي من كل جانب، وظلمة الزمن الرديء الذي راح يبني من حولي أسوارًا فوق الأسوار.. وما أنا إلا يونس.. خرج مغاضبًا فلم يكن جزاؤه إلا بطن هذا الحوت.. لكن تسابيح يونس جعلت كل الكائنات تُسبّح معه فعجّلت بخروجه من بطن الحوت.. أما الآن فلا أملك سوى أن أُسبّح وحدي، لعل الحوت يستجيب لي ويلقي بي على الشاطئ مرة أخرى..

مازلت أفكّر فيما حدث وأُحاول أن أجدَ له تفسيرًا واحدًا.. أي نفس مريضة سوّلت لصاحبها أن يفتري هذه الفرية؟ هل «جوجوش» نفّذت تهديدها انتقاما منّي لعدم مجاراتها؟ أم «ثابت أبو السعود» الذي

يخفي خلف هدوئه ورزانته شيئًا غامضًا لم أستطع فهمه أو الوصول إليه؟ أم «سعيد زيادة».. مهرج الملك.. الذي يسعى إلى تثبيت أقدامه في البنك ولو على حساب الآخرين؟ أم «خيرية» التي حاولتْ قدر إمكانها أن تنتزع مني رأيًا في حق المدير، ولما لم أعطها الفرصة دبّرت هذه المكيدة؟ أم أنه «ميسرة» السائق السوداني اللئيم، لم ألتقط منه الطعم فافترى كذبًا عليّ؟ أم «أردشير» عامل التكييف الباكستاني؟ أم «زهور» الساعي الهندي؟ الجميع مذنبون.. هؤلاء هم العفاريت الحقيقيون..

كان عليّ أن أنتظر بضعة أيام حتى أتقاضى راتبي وأعود من حيث أتيت، حاملًا معي حطام أحلام ورديّة نسجتها وأنا في طريقي إلى هنا..

أول شيء فعلته أن قمت بالاتصال بـ«غادة» لأقول لها أوقفي كل شيء.. فلا تأشيرة ولا سفر ولا عقد ولا عمل ولا نقود ولا أي شيء.. كل هذا كان سرابًا.. وها هي صخرة الحقيقة الكؤود في بحر الأمل نرتطم بها لنصحو على اليأس والمستحيل..

كم كنت أتمنى أن أسمع «غادة» تقول لي.. كفانا غربة وتعال ولكنني أعلم جيّدًا أن الأيام التي مضت لم تكن هيّنة بالدرجة التي تجعل زوجتي تحثّني على هدم كل شيء والعودة بخُفَّي حُنين.. وشعرت

لأول مرة أني أقف وحيدًا فوق صخرة صغيرة وسط المحيط تلاطمها أمواج عاتية من كل جانب..

بدأ الليل ينسج خيوطه الكئيبة السوداء، ليلقي بظلاله الآثمة على الجدران الصمّاء، كأن أشباح الليل تعد نفسها للمجيء، وبدأتُ أسمع فحيحها وهي تقترب.. انتابني فجأة إحساس غريب لم يعترني منذ أتيت إلى هنا لم أشعر بالخوف من العفاريت. بل تمنّيتُ أن يظهروا.. بالتأكيد لن يكونوا في شراسة ووحشيّة البشر.. ليتهم يظهرون لأشهدهم على بني الإنسان الذين تمتلئ قلوبهم حقدًا وضغينةً.. أين هم حتى أحكي لهم؟ أين هم؟

وسمعتُ طرْقًا خفيفًا على الباب، أسرعت إليه وأنا على استعداد للقائهم.. فتحت لأجد أمامي «أردشير» بجسده النحيل ولحيته النافرة.. ما أن رآني حتى انفجر باكيًا:

- ألم أقل لك يا بني احذرهم.. يا لهم من مجرمين.. أخذوا يكيدون لك حتى أوقعوك.. إذا تمكّن الشر من بني آدم فقل على الدنيا السلام..

عانقته بحرارة وأنا أقول:

- لا تبك يا عم «أردشير».. أنا لم أخرج من الجنّة بل ذاهب إليها.. فزوجتي وابنتي وابني.. الأهل والأصدقاء جميعهم ينتظرونني بشوق.. يتمنون مجيئي بنفاد صبر.. اطمئن..

انصرف «أردشير» واستلقيت على فراشي أفكر الليل طوله فيمن يستطيع أن يفعل ذلك، حتى أدركني النعاس فاستسلمت له هربًا من الجوع والظمأ..

استيقظت في الصباح التالي على طرقٍ بالباب. عندما فتحت وجدت أمامي أخي «كمال».. دخل مُنزعِجًا وهو يصيح:

- كيف حدث هذا؟ ولماذا لم تتصل بي طوال هذه المدة؟ و«سهام» تقول...

صحت في إعياء مقاطعًا إياه:

- إنني لم أذق الطعام والشراب منذ أربعة أيام..

فغِرَ فاهًا دون أن ينطق.. بصعوبة ارتديت ملابسي وانطلقتُ إلى البنك لأتقاضى آخر راتب لي في هذا البلد الأمين.. بعد ذلك أسرع بي أخي إلى أقرب مطعم قبل أن ألفظ آخر أنفاسي، ومع ذلك لم أصب من الطعام إلا قدرًا يسيرًا..

بعد الطعام نظر إليّ أخي بعينين يملؤهما الخجل وقال بصوت منكسر:

- آسف.. لم أكن أحب أن يحدث لك هذا في بيتي..
- لم يحدث شيء..

أطرق قليلًا:

- لم يعد لي عيش معها بعد اليوم سأرسلها مع أخيها إلى مصر وهناك سأنهي إجراءات الطلاق..

أسرعتُ أقول:

- لو حدث هذا سيقولون أني جئت لأطلقكما.. لا يا كمال لا تنس أن لك ابنًا.. ما ذنبه لو انفصلتما..
- لم يعد هناك شيء يهمّني.. لقد جئت وفي نيّتي الإقامة معك هنا في "أم القيوين".. لم أعد أطيق العيش معها..
- "أم القيوين" لم يعد لي عيش فيها.. هيا بنا إلى "دُبَيّ"..

وتركت الشَّقّة بكل ما فيها سبيلًا لمن سيأتي بعدي.. فلست بحاجة إلى الدراهم القليلة التي ستأتيني من بيعها.. ولم أجد لديّ الرغبة في فصال مشترٍ هندي من أجل درهمين.. تركتُ كل شيء ومشيت..

ونحن في الطريق إلى "دُبَيّ" بادرت أخي:

- إلى أين نحن ذاهبين؟
- إلى البيت..
- كم أود الآن أن أرحل إلى مصر.. لقد كرهت كل شيء هنا..

أطرق «كمال» قليلًا قبل أن يقول:

- لا تيأس يا عصام من أول جولة. فلنحاول ثانية وتذكر أن "أم القيوين" لم تكن في حسباننا عندما أتيت إلى هنا، دعنا نجرّب في "دُبَيّ" أو "الشارقة"..

كنا قد وصلنا إلى البيت وقبل أن نستقل المصعد مال أخي على أذني وقال بطريقة جادة محاولًا تخفيف لهجة التوسّل فيها:

- «سهام» تريد أن تفتح معك صفحة جديدة، إذا بادرت بالاعتذار فامسك بطرف الخيط..

نظرتُ في عينيه لأقرأ ما وراء كلامه، فأطرق مضيفًا:

- أما بالنسبة لي فلن أغفر لها أبدًا ما بدر منها تجاهك طوال الفترة التي قضيتها هنا، بالرغم أنني أكرمت أخاها «فريد» وسعيت لإيجاد عمل له، وبإمكاني أن أقيله من عمله..

أسرعت أقول:

- لم يحدث شيء يستحق كل هذا يا أخي.. لسنا من قاطعي الأرزاق.. إن ما فعلتْه «سهام» معي هين بالنسبة لما رأيته في "أم القيوين"..

وهكذا دخلت البيت الذي أقسمت يومًا ألا أدخله.. وبالرغم من آي الترحيب والابتسامات المصطنعة التي استقبلتني بها «سهام»، فلم أشعر يومًا بالصدق في عينيها اللتين كانتا زائغتين حائرتين، خاصة عندما أعلن أخي «كمال» أنه في سبيل إيجاد عمل لي بإحدى المكتبات العامة بالشارقة.. لكنني قررت فيما بيني وبين نفسي ألا ألقي بالًا لتصرفاتها الحمقاء وأنتظر لأرى ما سوف تسفر عنه الأيام القادمة.

كنت أقضي طول الوقت خارج المنزل ولا آتي إلا للنوم حتى لا ألتقي بها.. فأجوب شوارع "دُبَيّ" وطرقاتها سيرًا على الأقدام مُفكِّرًا فيما جرى، أحاول أن أجد له تفسيرًا، دون أن أدري تأخذني قدماي إلى كوبري "الشندغة" فكورنيش "الشارقة"، أتأمّل المارّة من جميع الجنسيّات يضحكون ويتحدثون في لا مبالاة.. أتوقف عند بعض الهنود وقد ارتكنوا في ركنٍ وراحوا يستمعون في شوق وحنين إلى إذاعة بلادهم وأغنيّاتهم المفضَّلة..

انتبهت على صوت يناديني:

- أستاذ عصام..

عندما التفت وجدتها «شوشو» بملابسها المثيرة وماكياجها الصارخ.. وتذكرت كلام «حمدي رفعت» عنها فأدركت أنها تبحثُ عن زبونٍ مناسبٍ في هذا المكان، وبالطبع لستُ أنا هذا الزبون مهما بلغ شعورها الوطني.. رحت أسلّم عليها فأخذتني إلى أحد مقاعد العشّاق حول الكورنيش.. وجلسنا معًا.. من يرانا يظن أن اتفاقًا سيبرم بيننا في التوّ وربما يكون الاختلاف على السعر أو المكان..

بادرت «شوشو» بقولها:

- لقد علمت أنك تركت العمل في البنك.

عقبتُ قائلًا:

- أنا لم أتركهم بل هم الذين تركوني..

صاحت بانفعال:

- ألم أقل لك إن «راشد جمعان» هذا رجل مخرّف ومجنون.. دعني له وأنا أعرفه مقامه..
- لا فائدة من هذا..
- وماذا تنوي أن تفعل؟
- سأعود إلى مصر..

صرخت:

- إياك.. ما أقسى العودة في تلك الظروف.. كنت فعلتها قبلك.. فـالجميع هنـاك ينتظرونـك يعقـدون عليـك آمـالًا عريـضة.. عودتك الآن ستسبب إحباطًا لهم ولك.. إنني أحدِّثك كـأخي حاول مرة أخرى. اشتغل أي شيء.. وأنـا مـن جـانبي سـأكلم أحد معارفي لإيجاد عمل مناسب لك..

نظرت في عينيها.. فلمحت صـدقًا خالـصًا لم أره في أي عـين منـذ جئت إلى هنا ونسيت أني أمام عاهرة تبيع جسدها، بـل إنـسانة بكـل مـا تحمله هذه الكلمة من معنى.. وفوجئت بها تخرج بعـض النقـود وتقـول لي:

- خذ هذه دعها معك وعندما تعمل ردها لي..

شكرتها معتذرًا عن أخذ النقود ومشيت..

كانت أجمل اللحظات تلك التـي أقـضيها مُختليًا في غرفـة «كـريم» أستعيد سـماع صـوت ابنتـي «هـدى» وزوجتـي «غـادة»، وقـد هـام بي الشوق فـدمعتْ عينـاي، وتـذكّرت أني سأعود إلـيهما خـالي الوفـاض لم أكسب غير الوحشة والغربة، وحمدت الله أني نقدت أخي آخر دفعة مـن

ثمن الشَّقّة التي لم أبق فيها غير شهر واحد.. أخرجني «كريم» من وحدتي دون أن أشعر به، واقترب منّي وهو يقول:

- ما هذه الدموع التي في عينيك يا عمو؟

أسرعت أقول وأنا أداعب وجنتيه:

- إنها ليست دموعًا يا حبيبي.. فالرجال لا يبكون..

وأسمعته صوت «هدى» ابنتي على شريط الكاسيت، ويبدو أن اللعبة أعجبته فجعلني أعيد عليه الصوت عدة مرات، ثم طلب مني أن أقوم بتسجيل صوته.. فمضيت معه طول الوقت أُسَجِّل له وأُسمِعه صوتَه فيضحك.. ووجدت من اللعب مع «كريم» قتلًا للوقت وتعويضًا عما جرى لي..

مرّت الأيام "وعادت "رِيما" لعادتها القديمة".. أو بمعنى أصحّ عادت «سهام» إلى ضلالها القديم.. عدم الجواب إذا بادرتها بسؤال، أو عدم رد التحيّة، أو إغلاق الهاتف في وجهي إذا كنت مُتحدِّثًا من الخارج.. في نفس الوقت لم يتمكن «كمال» من الحصول على عملٍ لي كما كان يعتقد..

وأخيرًا قرّرت الرحيل.. عاد «كمال» من عمله يومًا فوجد حقائبي مُعدّة ووجدني مُتأهّبًا.. حاول أن يثنيني عن عزمي لكنني كنت قد حزمتُ أمري..

في الصباح كنت أحمل حقائبي يعاونني «كمال»، ثم سألني بضعف:

- ألن تسلّم على «سهام».. و«كريم»؟

عضضتُ على شفتي، لم يكن لديّ أدنى رغبة كي تراني في هذا الموقف، لكن نزولًا على رغبة أخي ولعدم اتساع الشُّقّة بينهما توجّهتُ إليها ومددتُ يدًا آليّةً باردة.. فتراقصت ابتسامة فوق شفتيها لم أرها منذ جئتُ إلى الإمارات، وصاحتْ بصوتٍ تقفز فيه الفرحة:

- سنفتقدك..

لم أَرُدّ، ورُحتُ أقبِّل «كريم» الذي صاح وهو يخفي وجهه حتى لا أرى دموعه:

- لا تسافر يا عمو..

سوف يكون صوتك معي في الشريط طول الوقت..

(١٢)

كنت أقبع داخل مقعدي في الطائرة ، متوسِّدًا الكوة الزجاجية التي بجانبي في انتظار لحظة الإقلاع.. يمرّ بذاكرتي شريطٌ طوله أربعة أشهر ومدة عرضه لحظة واحدة.. وكلما تذكّرتُ الأحداث الماضية لا أدري أأضحكُ أم أبكي.. كأنني أشاهد فصول مسرحية عبثيّة، وتساءلتُ في حيرة..

لماذا تركت مصر؟ كل شيء كان يدفعني إلى الرحيل.. كل شيءٍ تمَّ بسرعة مُذهلة.. جواز السفر والتأشيرة وتذكرة الطائرة والإقامة والعمل.. فجأة تحوّل كل شيء إلى الاتجاه المعاكس ليدفعني إلى العودة وبسرعة.. بالتأكيد هناك سرٌّ فينا لم نُدرِكْه بعد.. انتبهتُ على صوتٍ بجانبي يجيب على تساؤلاتي. كأنّه يحدِّثُني:

- مقدّر ومكتوب.. كلّه بأمره.. ارض بنصيبك..

التفت إليه لأجد رجلًا في السّتّين، له لحية بيضاء خفيفة تتصل بشارب أبيض كثّ.. يضع على رأسه طاقية، اختلط بياضها بشعره

الأشيب، توسطتْ جبهتَه سيماءُ السجود، إذا نظرت إليه تشعر كأن نورًا يَشِعُّ من وجهه لينفذ إلى قلبك.

سألته بصوتٍ خافت:

- حضرتك تحدثني..

هزّ رأسه دون أن ينظر إلي:

- إنني أحدث كل نفس محزونة ملأها الهمّ وخنقها العذاب..

ابتسمتُ في مرارة:

- ما حكايتها؟
- وما أدراك أن هناك نفسًا حزينة أو مهمومة.. أنظر يا سيدي.. الجميع هنا سعداء يضحكون في سرور..

ضَحِك الرجلُ وهو يُعقِّب:

- لا تحكم بالظواهر يا بني.. خلف الوجوه الباسمة قلوب تحترق، فطائرة العودة غير طائرة الذهاب..

اقتربتُ منه وأنا أقول بصوتٍ خفيض:

- كأنّك يا والدي تتحدثُ عني.. أتعرف الغيب أم تقرأ الطالع؟ بالله عليك، قل لي من أنت؟

ضحك وهو يعبث بلحيته وأجابني:

- أنا عمك «قنديل».. رجلٌ عاش في هذا البلد أكثر من عشرين عامًا.. عرفتُ كل شيء فيها.. يبدو أنك لم تكن سعيدًا في رحلتك هذه..

كنا نحلّق في السماء عندما بدأت أقُصّ عليه.. كنت في أمسِّ الحاجة إلى أن أحكي لأي إنسان، كي أُخفِّف من لظى النار المستعرة بصدري حتى صارت بركانًا في انتظار لحظة الانفجار.. وبعد أن انتهيتُ هزّ رأسَه وقال:

- إن ما جرى لك جرى لكثيرين قبلك، ويحدث مثله بل وأكثر كل يوم.. قَدَرُك أنك عشت بين نفوس بغيضة مريضة..

سكتُّ قليلًا، ثم أردف:

- ولكن يجب أن تعرف جيّدًا أننا في هذه الدنيا أسباب.. أسبابٌ لغيرنا وغيرنا أسباب لنا.. خروجك من مصر واشتغالك في "أم القيوين" وتآمر الزملاء عليك ثم رجوعك ثانية.. هذه الحركة الدائرية سببٌ لاستمرار الحياة وتدفُّقها..

قاطعتُه:

- كل ما كنت أبغيه أن أعرف الحقيقة.. من الذي افتعل هذه المؤامرة.. من سرق المستندات، ومن الذي وشى بي عند المدير؟
- وما الفائدة يا بني.. لقد قُضي الأمر وانتهى كل شيء..

ثم سكت قليلًا وأضاف:

أنا مثلًا ظللت أعمل عشرين عامًا في "أبو ظبي".. كان كلّ همي أن أحصل على النقود.. لم أتزوّج وليس لدي أبناء لكي أزورهم في مصر، فبقيت هنا عشرين عامًا لم أزر فيها مصر سوى مرّات قلائل.. منذ شهر تقريبًا شعرت بألم حاد في جانبي الأيمن.. ظل الألم يؤرّقني وعندما اشتد قررتُ الذهاب إلى طبيب.. وبعد عمل التحاليل والآشعّات فُوجِئتُ بالطبيب يخبرني بأني أعاني من ورم خبيث بالكبد وأن حالتي متأخّرة.. ذهبتُ إلى أطبّاء آخرين.. كلّهم أكّدوا نفس الحالة وأدركتُ أن نهايتي قد أوشَكَتْ، وقررتُ أن أعيش الأيام المتبقِّية من عمري في مصر ذلك البلد الذي أنجبني وضننتُ عليه.. وأعددتُ نفسي للعودة، فصفّيت أعمالي وتركتُ المسكن والسيّارة وكل شيء..

يسكت «قنديل» قليلًا، بينما أتطلّع إليه في إشفاق، ثم راح يكمل:

- قبل موعد سفري بأيام. ذهبت إلى أحد الأطباء لكي يُجري لي بعض الفحوصات، فإذا به يخبرني أن صحتي جيدة تمامًا وأن كبدي سليم ولم يصب في يوم من الأيام بأي ورم.. لم أصدّقه.. ذهبت إلى طبيب ثان وثالث ورابع. جميعهم أكّدوا لي نفس النتيجة.. كدت أطير فرحًا، وراح زملائي يهنئوني على سلامتي وينصحوني بإلغاء السفر والبقاء ما دام الخطر قد زال.. كدتُ أستجيب لهم لولا أنني فكّرتُ فيما حدث، وأدركتُ أن هذا كان سببًا في رجوعي إلى مصر، فصمّمتُ على العودة..

سرى حديث «قنديل» في نفسي سريان الترياق في الجسد المسمم، وشعرتُ بالرَّاحة، بينما راح يضيف:

- يا بُنيّ نحن جميعًا أسباب دون أن ندري..

أغمض «قنديل» عينيه فخِلْته يريد أن يغفو.. فتركته وعدت أفكّر في زوجتي وابنتي اللتين ينتظرانني الآن في المطار يترقّبان وصولي، واشتقتُ إليهما فأخرجتُ الجهاز وبه "شريط الكاسيت" لأستمع إليهما.. ضغطتُ على زرار التشغيل وبدلًا من أن يأتيني صوتهما أتاني صوت «كريم» ابن أخي وهو يغنّي، وابتسمتُ.. هذا الولد الشقي اعتاد العبث بالجهاز وتشغيله في عدم وجودي..

لكنني انتبهتُ على صوتٍ آخر أعرفه جيّدًا.. إنه صوت «سهام».. تتحدث مع صديقة لها في الهاتف.. كان صوتها واضحًا بالرَّغم من غناء «كريم»:

«أخيرًا يا نورا.. أخيرًا سأستطيع أن أتنفّس بعد أن ظلّ أربعة أشهر جاثِمًا على أنفاسي.. سوف أكسر وراءه زيرًا وليست قُلّة.. لا تتصوري ماذا فعلتُ حتى أخرجه من حياتنا.. أنا التي أخذت المستندات من حقيبته واتّصلتُ بمديره في البنك وأخبرته بأنه ينقل أسرار العمل إلى البنوك الأخرى المنافِسة، وأنه شتمه علانية، وقد أعطيته دليلًا على ذلك حديثًا دار بينه وبين المدير في مكتبه كان قد أخبر به «كمال».. طبعًا يا نورا.. أنا «سهام» والأجر على الله..

كنت أستمع إلى الشريط وأنا غير مُصدِّق، وشعرت للحظة أن الطائرة تهوي بي في أعماق سحيقة وأسرعتُ أوقظ «قنديل»:

- عم «قنديل».. استيقظ.. لقد عرفت الشخص الذي سرق المستندات ووشى بي عند المدير.. عرفت الجاني يا عم «قنديل».. عرفته.. لن تصدّق عندما أخبرك به.. أتعرف من هو؟
- ابتسم «قنديل» وراح يواجهني بعينيه العميقتين:

ماذا سيفيد يا بُني لو عرفت الجاني.. لقد أقلعت الطائرة وانتهى الأمر.. لا تنبش الماضي يا بُني وتذكّر أن هذا الشخص كان سببًا مجرّد سبب وانتهى دورُه برجوعك إلى مصر، وبالتّأكيد ستكون أنت سببًا لشيء آخر لا تعرفه أكثر قيمة وأكبر فائدة.. فكّر الآن في زوجتك وأبنائك وفيما يجب أن تفعله من أجلهم، فهناك المستقبل..

أومأتُ وأنا أربتُ على يديه:

- معك حقٌ يا عم «قنديل»..

أخرجتُ الشريط من الجهاز ووضعته جانبًا، بينما كانت الطائرة تحلّق بنا في سماء القاهرة، ورحتُ أنظر بشغفٍ من أعلى إلى البيوت الصغيرة الفقيرة وهي تتلاصق بجوار بعضها كعُلَب الكبريت، والسيّارات وهي تتزاحم في الشوارع والطُرُقات، والناس البسطاء وهم يسعون في أمانٍ راضين بما قسمه الله لهم، والنيل العظيم وهو يجري باعثًا النماء والحياة..

بدأتْ الطائرةُ تهبط شيئًا فشيئًا حتى استوتْ على الأرض، وبدأنا نتحرّك تاركين مقاعدنا، ورحتُ أعانق «قنديل»:

- حمدًا لله على السلامة يا عم «قنديل».. يجب أن نلتقي في القاهرة..

- شدّ على يدي بحرارة وقال:
- بإذن الله.. عندما يأتي النصيب..

بدأنا نتدافع في ممر الطائرة مُتَّجهين نحو السلم، وقبل أن أهبط الدرجات سمعت صوتًا خلفي يصيح:

- يا أستاذ.. هذا الشريط كان على مقعدك..

كانت المضيفة تمسك بشريط الكاسيت.. دليل الجريمة.. كدت أمدّ يدي وألتقطه، لكنني تذكرت كلمات «قنديل»، فصحتُ وأنا أبتسم:

- معذرة ليس شريطي..

وأسرعتُ أهبط الدرجات يدفعني الشوق واللهفة للقاء أهلي وجيراني.. أصدقائي وزملائي.. الناس الطيبين البسطاء بعيونهم العميقة التي تجد بداخلها اتساعًا يسع الكون بأسره.. وبدأت أذوب بين الناس المتدافعين إلى صالة الجوازات، لأصبح جزءًا في كيان واحد اسمه "مصر"*.

(تمت)

* بدأت كتابة القصة في طائرة العودة من دبي صباح الاثنين ٢٣ / ١ / ١٩٩٥

المؤلف في سطور

عضو اتحاد كتاب مصر، عضو نادي القصة، عضو نقابة المهن السينمائية.. مُذيع بالبرامج الثقافية بإذاعة صوت العرب، دبلوم دراسات عليا في الإعلام من كلية الإعلام جامعة القاهرة.

نشر في العديد من الصحف والمجلات العربية والمصرية مثل الأيام البحرينية، المنتدى الإماراتية، البيان الإماراتية، المنتدى السعودية، والأهرام والجمهورية والمساء والقاهرة والقصة بمصر، ومجلة التقدم العلمي بالكويت ..

كتب عددًا من الأعمال الدرامية للإذاعة والتليفزيون المصري ما بين السهرة والسباعية والمسلسل منها "السلطانية- خليها على الله- أطفال حكموا العالم- الحب فوق السطوح- البحث عن شمندل- خزانة شمائل- سباعية أحلام فتاة الكومبارس- هوس النرجس- شفرة آدم".

الجوائز الحاصل عليها :

١ - جائزة الكتاب الأول بالمجلس الأعلى للثقافة عن المجموعة القصصية أنقذوا هذا الكوكب عام ١٩٨٥

٢- جائزة الثقافة الجماهيرية عن القصة القصيرة "العمر خمس دقائق" عام ١٩٩١.

٣- جائزة محمد تيمور للإبداع المسرحي عن مسرحية عائلة السيد رقم ١ عام ١٩٩٣.

٤ - الجائزة الأولى في الرواية بنادي القصة عن رواية السلمانية عام ٢٠٠٠.

٥ - الجائزة الثالثة في الرواية بنادي القصة عن رواية الكوكب الجنة عام ٢٠٠٠.

٦ - الجائزة الأولى بجمعية الأدباء عن مجموعة "بدرية بالخلطة السرية" عام ٢٠٠٤.

٧- الجائزة الثانية في مسابقة إحسان عبد القدوس للرواية عن رواية "خزانة شمائل" عام ٢٠٠٥.

٨- جائزة مسابقة كتاب اليوم الأدبي عن قصة "محجوب بالمقلوب" عام ٢٠٠٦.

٩- شهادة تقدير من المؤتمر الأول للخيال العلمي بدمشق عام ٢٠٠٧

صدر للمؤلف

١ - أنقذوا هذا الكوكب- مجموعة قصصية من الخيال العلمي- ١٩٨٥

٢- العمر خمس دقائق- مجموعة قصصية من الخيال العلمي- ١٩٩١

٣- وصية صاحب القنديل- دراسة- ١٩٩٥

٤ - صحوة- دراسة عن الأديب يحيى حقي- ١٩٩٥

٥- بنت الحاوي- مجموعة قصصية من الخيال العلمي- ١٩٩٧

٦- عائلة السيد رقم ١ - مسرحية من الخيال العلمي- ١٩٩٩

٧- ثمرة حب خائب- دراسة- ٢٠٠٢

٨- بدرية بالخلطة السرية- مجموعة قصصية من الخيال العلمي- ٢٠٠٣

٩- قراطيس- مجموعة قصصية- ٢٠٠٤

١٠- محجوب بالمقلوب- مجموعة قصصية من الخيال العلمي- ٢٠٠٦

١١ - عيـون أينـشتين- مجموعـة قصـصية مـن الخيـال العلمـي- هيئـة الكتاب- ٢٠٠٦

١٢ - بدار عاشق الديار - رواية تاريخية- دار الهلال- ٢٠٠٧

١٣ - خزانة شمائل- رواية تاريخية- الدار المصرية اللبنانية- ٢٠٠٨

١٤ - الكوكب الجنة - رواية من الخيال العلمي- دار الفاروق- ٢٠٠٨

١٥ - بردين "رواية من الخيال العلمي- دار الفاروق- ٢٠٠٨

١٦ - وصية صاحب القنديل طبعة٢- سيرة غير تقليدية عن الأديب الراحل يحيى حقي- دار الفاروق- ٢٠٠٩

١٧ - هوس النرجس- رواية- دار الفاروق- ٢٠٠٩

١٨ - السلمانية- رواية- الدار العربية للعلوم بيروت- ٢٠٠٩

١٩ - مسّ العُشّاق- رواية- الدار العربية للعلوم- بيروت- ٢٠٠٩

٢٠ - شفرة آدم- رواية- دار الطلائع - ٢٠١٠

٢١ - عفاريت ترانزيت- رواية - دار صرح- ٢٠١٠

تحت الطبع

١ - رجل زاده الخيال- سيرة غير تقليدية عن رائد الخيال العلمي نهاد شريف- دار الفاروق

٢- صائد الأقمار- مجموعة قصصية- اتحاد كتاب مصر

٣- روّاش صاحب الجراح-- مجموعة قصصية

الأعمال المترجمة

- **قامت ألكسو بترجمة هذه الأعمال للمؤلف:**

١ - رواية خزانة شمائل إلى الإنجليزية

٢- رواية الكوكب الجنة إلى الإنجليزية

٣- مجموعة عيون أينشتين إلى الفرنسية